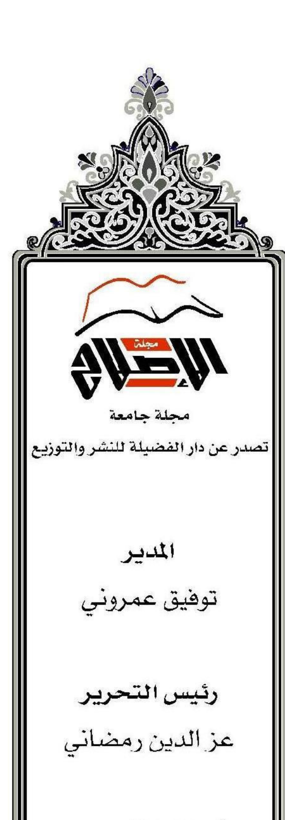


مجلة جامعة
تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

أيُّها القرَّاء الكرام
نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد
ونسعَد بكلِّ نَقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة «**الإصلاح**»
وسيلة لنشر العلم النَّافع

العنوان:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي دوزي، قطعة (01)، رقم (06) باب الزوار ـ الجزائر
الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

المراسلات:
ص ب 640 ـ 16008 الجزائر

darelfadhila@maktoob.com

التوزيع:
جوال: 08 53 62 (0661)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ بالله منْ شرورِ أَنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

تجدون في هذا العدد...



حقيقةُ حبِّ الوطن

التحرير

كثيرٌ أولئك الَّذين سوَّدوا الصُّحف بوابل التُّهم والأراجيف، وصوَّبوا سهامهم الممزوجة بالسُّمِّ إلى نُحورِ من اصطلحوا على تسميتهم بـ«الوهَّابيِّين» أو «السَّلفيِّين»، يجرِّدونهم من أدنى ما اتَّفقت المخلوقات على حبِّه والحنين إليه والارتباط به، وهو الوطن ـ بأرضه وسمائه وساكنيه ـ ويجعلونهم في خانة أعداء الأمَّة ومبغضي الوطن، وقليلٌ أولئك المنصفون الَّذين لا تستفزُّهم التُّهم الملفَّقة، ولا تُغير على عقولهم الأحكامُ المسبقة، إلاَّ بعد النَّظر في الدَّعوى وما بُنيت عليه من دلائل وحجج، وما حوته من حقائق أو أباطيل، ومع هذا القليل يستعذب الحديث، ويُثار النِّقاش، وتستبين الحقائق، ويزال الغمط.

إنَّ غاية ما يرمي به الظَّالمون الأدعياء المظلومين الأبرياء، قولهم المرجف: «هؤلاء لا يحبُّون وطنهم»، وهي عبارة لو روعي فيها مجرَّد اللَّفظ لاستوجب إنزال العقاب الزَّاجر على من قال ذلك، لكن العاقل يبحث ما وراء الألفاظ من المعاني والمدلولات إذ هي الحاكمة على المقاصد والنِّيَّات.

وسرُّ الادِّعاء الآثم يرجع إلى مقولة يظنُّ الزَّاعمون المبطلون أنَّهم أحقُّ النَّاس بها، وبفهم معناها، وتجسيد مقتضاها، وأنَّ غيرهم ـ ممَّن يتَّهمونهم بالعمالة أو الخيانة ـ عازفون عن التَّرنُّم بها، زاهدون في الحديث عنها، بل يزعمون أنَّهم يُجهِّلون أو يبدِّعون أو يؤثِّمون كلَّ من نطق بها لسانُه أو خطَّها يراعُه مستشهدًا ومستدلاًّ بها، أو متحاكمًا إليها ومؤسِّسًا عليها حديثًا أو خطابًا، تلكم هي المقولة الشَّهيرة المنسوبة ـ كما قيل ـ لبعض السَّلف ﷺ: «حبُّ الوطن من الإيمان».

وهذا الزَّعم في غاية التَّهافت والبطلان، وهو شبيه بما نسبه «العليويُّون» للمصلحين من «جمعيَّة العلماء» حين نشروا مقالاً في جريدتهم تحت عنوان: «المصلحون يحاربون لا إله إلاَّ اللّه»، وذلك لَمَّا تصدَّى علماءُ الجمعيَّة لبدعةِ القوم في رفع أصواتهم بالتَّهليل في تشييع الجنازة، فكان أن أنكروا عليهم فعلتهم المخالفة للسُّنَّة وما يُناسب جلال الموت ورهبته وهو الخشوع والتَّذكُّر والاعتبار بمن حملوا على الأعناق.

والخشوع معروف هو غير الصُّراخ والعويل والضَّجيج والتَّهويل، وقد كتب يومها العلاَّمة البشير الإبراهيمي رحمه الله مقاله الرَّائع بعنوان: «إمَّا سُنَّة وإمَّا بدعة»، وكان ممَّا سطَّره يراعه الجريء النَّاطق بالحق: «إنَّ لا إله إلاَّ اللّه لا توضع في غير مواضعها يا قوم! فمالكم إذا قيل لكم: لا تضعوها في غير محلِّها، ومنه الجهر بها في التَّشييع، قلتم متجرِّئين:

إنَّنا نحارب لا إله إلاَّ الله، كَبُرَت كلمة تخرج من أفواههم» [«الآثار» (290/1)].

والحقيقةُ الَّتي ينشدها أهل الإنصاف، ويأباها أهل الإرجاف، ولا يرضونها إلاَّ نقيصة يذمُّون بها من لا يريدون إشراكه في حبِّ الوطن، ولو كان من أبنائه، هي أنَّ مقولة: «حبُّ الوطن من الإيمان» ليست حديثًا عن النَّبيِّ ﷺ، يتواصى المسلمون بذيعه في مجالس الوعظ والتَّذكير، وتسطيره في كتب العلم مع التَّسليم بصحَّة نسبته إلى النَّبيِّ المعصوم ﷺ؛ لأنَّ المرجع في قبول الأحاديث أو ردِّها هي الأصول المعتمدة عند أهل الصِّناعة الحديثيَّة، وقد حَكَمُوا بوَضْعِه، فلا نُخالف ما قالوه وهم العلماء، وغيرهم تَبَع لهم وآخذ منهم وعنهم.

بيد أنَّهم ـ مع اعتقادهم عدم صحَّة الحديث ـ يؤمنون بمعناها، ويرون من أدلة الشَّرع ما يخدم معناها.

فهناك قدرٌ مشترك بين المسلم والكافر في حبِّ الوطن ـ مَهْد النَّشأة والولادة ـ فكلٌّ يحبُّ وطنه كحبِّه لنفسه وماله وأهله، وهذا لا يمكن أن يكون من لوازم الإيمان؛ لأنَّه غريزيٌّ في الإنسان، وقد فطر الله عليه جميع المخلوقات، فالإبل تحنُّ إلى أوطانها والطُّيور تحنُّ إلى أوكارها وهكذا كلُّ نفس مخلوقة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والنَّفس تحنُّ إلى الوطن إذا لم تعتقد أن المقام به محرم أو به مضرَّة أو ضياع دنيا» [«المجموع» (463/27)].

وهناك ما يتميَّز به المسلم عن الكافر وعن الحيوان ـ وهذا سرُّ الحديث ـ وهو أنَّه يجتمع في المسلم الحبُّ الفطريُّ الغريزيُّ والحبُّ الشَّرعيُّ، باعتبار أنَّ حبَّه لوطنه نابعٌ من أنَّ أرضه موطنٌ لإقامة أكثر الشَّعائر كالجمعة والجماعات والأذان وغير ذلك، ومن حبِّ العلم ـ وإن كان ضئيلاً ـ الَّذي يكتسبه المسلم فيه، ومن حبِّ اجتماع المسلمين وتنظيم أمورهم لعمارة الأرض على ترابه، ومن حبِّ الأهل والأقارب والجيران وما يتولَّد من ذلك من الطَّاعات والقربات كَبِرِّ الوالدين وصلة الأرحام وكفالة الأيتام والإحسان إلى الجيران ونحو ذلك.

فحبُّ الوطن الإسلاميِّ مشروع، ولا يجوز لمسلم أن يتنكَّر له بحجَّة عدم ثبوت ما يفيد ذلك باللَّفظ الصَّريح أو المعنى الصَّحيح، فقد جاء من نصوص الشَّرع ما يدلُّ على أنَّ حبَّ الوطن مشروع، ومحبُّه مأجور غير مأزور إذا احتفت بهذا الحبِّ عوامل القيام بطاعة الله وعبادته وعمارة أرضه والإحسان إلى خلقه.

فهذا الحافظ ابن حجر رحمه الله يقول عند حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر فأبصر درجات المدينة أَوْضَعَ ناقته ـ أي أسرع بها ـ وإن كانت دابَّة حرَّكها من حبِّها» [البخاري (1802)].

قال رحمه الله: «فيه دلالة على مشروعيَّة حبِّ الوطن والحنين إليه» [«الفتح» (782/3)].

وأشار العلاَّمة المناوي في لَفْتَةٍ بديعة إلى حبِّ الأوطان عند شرحه لقول النَّبيِّ ﷺ: «**إِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ حَجَّهُ فَلْيُعَجِّلِ الرُّجُوعَ إِلَى أَهْلِهِ؛ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ لأَجْرِهِ**» [«صحيح الجامع» (734)].

قال ﷺ: «فليعجِّل» أي فليسرع ندبًا، «الرُّجوع إلى أهله» أي وطنه وإن لم يكن له أهل، «فإنَّه أعظم لأجره» لِما يدخله على أهله وأصحابه من السُّرور بقدومه؛ لأنَّ الإقامة بالوطن يسهل معها القيام بوظائف العبادات أكثر من غيرها، وإذا كان هذا في الحجِّ الَّذي هو أحد دعائم الإسلام، فطلب ذلك في غيره من الأسفار المندوبة والمباحة أولى... وفيه ترجيح الإقامة على السَّفر غير الواجب» اهـ من «فيض القدير» (1/418).

وقد نبَّه الحافظ ابن كثير وغيره في سيرته على أنَّ دعاءه ﷺ أنْ يحبِّب اللهُ إليهم المدينة كحبِّهم مكَّةَ أو أشدّ، إنَّما هو لِما جبلت عليه النُّفوس من حبِّ الوطن والحنين إليه، وفي قصَّة الوحي وهي في «الصَّحيح» أنَّ ورقة بنَ نَوْفَل لَمَّا قال للنَّبيِّ ﷺ: لَيْتَنِي أكونُ حيًّا إذْ يُخرجك قومك! قال ﷺ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!**» قال: نعم، قال السُّهيلي: «ففي هذا دليل على حبِّ الوطن، وشدَّة مفارقته على النَّفس» [«الروض الأنف» (1/413)].

فحبُّ الوطن ليس نشيدًا تستعذبه الألحانُ، وليس لافتة تَزْيين تعلَّق على الجدران، ولا وقفة تخشع لها الصُّور والأبدان، فالحبُّ رخيصٌ حين يكون زعمًا وكلامًا، ولكنَّه غالٍ وثقيلٌ حين يكون عملاً وتضحية وإقدامًا.

وإنَّما حبُّ الوطن المفعم بالإيمان والمشبَع بالتَّفاخر به والاعتزاز به ـ حقًّا وصدقًا ـ إنَّما يكون بالحفاظ على أَمْنِه وسلامته، والابتعاد عن ترويع أهله وإشاعة القتل والنَّهب والفوضى وجميع صور الإفساد في رُبُوعِه تحت أيِّ غطاء كان، ويكون بنبذ العصبيَّات والنَّعَرَات والتَّحزُّبات الَّتي تسعى إلى تَفْرِقَتِه وتشتيته، وتَحُول دون اجتماعه ووحدته، ويكون بلزوم جماعة المسلمين المنتظمة تحت لواء وليِّ الأمر، والانضمام في سِلْكِها والاجتماع على كلمتها وعدم التَّشجيع على مفارقتها وشقِّ عصاها ومخالفة سبيلها والافْتِيَاتِ عليها، ويكون بطاعة من أوكل له تسيير شؤون الأمَّة وإعانته على ما حمل القيام به وجمع الكلمة عليه، وردِّ القلوب النَّافرة إليه، والدُّعاء له ولأعوانه بالصَّلاح والتَّوفيق والسَّداد، كما يكون حبُّ الوطن باستغلال خيراته وثرواته وصيانتها من عبث المفسدين وخدمة أرضه ومن عليها من العباد والممتلكات والمكاسب والإنجازات؛ ليستغني عن غيره، ويعظم في عين أعدائه الطَّامعين فيه، والسَّعى به نحو الأكمل والعيش الأفضل إذ ليس من شرط الوطن أن يكون كاملاً لا نقصَ فيه، هذا أمر مستحيل ـ لكن حسبنا القرب من الكمال والتَّقدُّم نحو الأحسن.

فهذه وطنيَّة أهل الإسلام، ليس فيها تدليس ولا إيهام، بل هي وطنيَّة تحفظ الثَّوابت وتقوِّي الارتباط بشرع الله تعالى، إذ هو المخرج من جميع الفتن والمصائب الَّتي تحلُّ بالأمَّة.

واللهَ نسأل أن يحفظ أوطان المسلمين عامَّة ووطننا خاصَّة من كيد الكائدين وتربُّص المعتدين، وأن يعين ولاة أمورنا على استتباب الأمن وإقامة العدل ونشر الخير وأن يهدي من ضلَّ عن سواء السَّبيل ويوفِّقه للتَّوبة والرُّجوع إلى الله، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فلاح المؤمنين في تحقيق: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

نجيب جلواح

سُورةُ الفاتحةِ خيرُ القرآن الكريم[1] وأفضله[2]، وهي أعظمُ سُوره[3]، بل ما نزل في التَّوراة ولا في الإنجيل ولا في الزَّبور ولا في الفرقان مثلُها[4].

(1) عن عبد الله بن جابر البَيَاضي رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَخْيَرِ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»، وهو في «صحيح الجامع» (2592).

(2) أخرج الحاكم عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أَفْضَلُ القُرْآنِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»، وهو في «صحيح الجامع» (1125).

(3) روى البخاري (4204) عن أبي سعيد بن المُعلَّى رضي الله عنه قال: «كنتُ أصلِّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجِبْه حتَّى صلَّيتُ ثمَّ أتيته، قال: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ؟» فقلتُ: يا رسول الله! إنِّي كنتُ أصلِّي، فقال: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]؟»، ثمَّ قال: «لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ»، ثمَّ أخذ بيدي، فلمَّا أراد أن يخرج، قلتُ: يا رسول الله! ألم تقل لأعلِّمنَّك سورة هي أعظم سُورة في القرآن؟ قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ».

وقد سمِّيتْ بأسماءَ كثيرةٍ، ونُعتت بأوصافٍ عديدةٍ، والشَّيءُ إذا عظُم شأنُه كثُرت أسماؤه وتعدَّدتْ أوصافُه، ألم ترَ أنَّ السَّيفَ لَمَّا كان ـ عند العرب ـ ذا شأن عظيم ومنفعة متأكِّدة؛ جمعوا له من الأسماء الكثير؟!

وقد عدَّ بعض أهل العلم للفاتحة أسماء؛ فأوصلوها إلى نيِّفٍ وعشرين اسمًا.

وممَّا ثبت في القرآن الكريم والسُّنَّة الصَّحيحة مِن أسمائها: «فاتحة الكتاب»، و«السَّبع المثاني»، و«أمُّ القرآن»، و«أمُّ الكتاب»، و«الصَّلاة»، و«النُّور»، و«الرُّقية»...[5].

(4) روى أحمد (8328) والتِّرمذي (2875) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه قرأ على النَّبيِّ ﷺ أمَّ القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا، هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»، و هو في «صحيح الجامع الصَّغير» (7079).

(5) انظر: «معالم التَّنزيل» للبغوي (1/49)، «التَّحرير والتَّنوير» لابن عاشور (1/129).



عن الرَّبيعِ بنِ صُبَيْحٍ عن الحسن قال: «أنزل اللّه عزّ وجلّ مائةً وأربعةَ كُتبٍ مِن السَّماء أودع علومَها أربعةً منها التَّوراة والإنجيل والزَّبور والفرقان، ثمَّ أودع علومَ التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ الفرقانَ، ثمَّ أودع علومَ القرآنِ المفصّلَ، ثمَّ أودع علومَ المفصّلِ فاتحةَ الكتابِ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميعِ كتبِ اللّه المنزَّلة»[6].

وتوجيه هذا: أنَّ العلومَ الَّتي جمعها القرآنُ أربعةٌ، قامت بها الأديان، وحَوَتْها الفاتحة ـ مع إيجازٍ في اللَّفظ ـ، ولهذا سمِّيت «أمَّ القرآن»، وهذه المقاصد الأربعة هي:

أحدها: العقائد؛ وقد اشتملت على أنواع التَّوحيد الثَّلاثة وهي:

أ ـ التَّوحيد العلميُّ أو ما يُسمَّى بتوحيد الأسماء والصِّفات، ودلَّ عليه ذِكر: «اللّه» و«الرَّبّ» و«الرَّحمن» و«الرَّحيم» و«الملك».

ب ـ التَّوحيد القصدي الإرادي، وهو نوعان: توحيد في الرُّبوبيَّة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾، وتوحيد في الإلهيَّة، ويسمَّى أيضًا: توحيد العبادة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فهذه ثلاثة أنواع، كما اشتملت على معرفة النُّبوَّات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومعرفة المعاد، وهو المُومأ إليه بقوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

ثانيها: العبادات؛ وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

ثالثها: السُّلوك والأخلاق؛ وأنفعها ما يوصل العبد إلى الاستقامة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

رابعها: القصص وأخبار السَّابقين؛ وإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[7].

وسرُّ الخلق والأمر والكتب والشَّرائع والثَّواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وعليهما مدار العبوديَّة والتَّوحيد، حتَّى قيل: إنَّ اللّه جمع معاني المفصّل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في هذه الآية الكريمة، وهما الكلمتان المقسومتان بين الرَّبِّ وبين عبده نصفين: فنصفها له تعالى، وهو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفها لعبده، وهو: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقد قال بعض السَّلف: «الفاتحة سرُّ القرآن، وسرُّ الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾».

والدِّين يرجع كلُّه إلى هاتين الكلمتين: العبادة والاستعانة، فالأولى: تبرُّؤٌ من الشِّرك، والثَّانية: تبرُّؤ من الحول والقوَّة، والتَّفويض إلى اللّه، وقد جاء هذا المعنى في غير ما آية من كتاب اللّه، منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا

(6) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2155).

(7) انظر: «مدارج السَّالكين» (1/24 ـ 25)، «تفسير المنار» (1/30).

﴿رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٩﴾ [الملك].

وعبادة الله والاستعانة به هما سبب السَّعادة الأبديَّة، والنَّجاة من كلِّ الشُّرور، وكلٌّ واحد منهما ـ أي: العبادة والاستعانة ـ دعاء، وإذا كان الله تعالى قد فَرَضَ علينا أنْ نُنَاجِيَه وندعوه بهاتين الكلمتين في الصَّلاة، وفي كلِّ ركعة من ركعاتها، فمعلومٌ أنَّ ذلك يقتضي أنَّه فَرْضٌ علينا أنْ نعبده وأن نستعينه، فالعبادة لله، والاستعانة به، فما لم يكن بالله لا يكون؛ فإنَّه لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، وما لم يكن لله فلا ينفع ولا يدوم[8].

وفي هذه الآية تفصيل لِما جاء في أوَّل السُّورة، حيث ذكر تعالى «الحمد» بالألف واللاَّم الَّتي تقتضي الاستغراق لجميع المحامد، فدلَّ على أنَّ الحمد كلَّه لله، ثمَّ حصره في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، فهو يدلُّ على أنَّه لا معبود بحقٍّ إلاَّ الله.

فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيَّتُه، مِن المحبَّة والخوف والرَّجاء والأمر والنَّهي، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: إشارة إلى ما اقتضته الرُّبوبيَّة من التَّوكُّل والتَّفويض والتَّسليم[9].

وتقديم المعمول على العامل في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾: لئلاَّ يتقدَّم ذِكر العبد والعبادة على المعبود بحقٍّ ـ سبحانه وتعالى ـ.

وفي تقديم المعبود والمستعان على الفعلين: أدبُهُم مع الله، بتقديم اسمه على فعلهم (نعبد، نستعين)، ولمزيد اهتمامهم وشدَّة العناية به، مع ما يفيده ـ زيادةً على ما ذُكِر ـ مِن الإيذان بالاختصاص المسمَّى بالحصر، فهو في قوَّة: «لا نعبد إلاَّ إيَّاك، ولا نستعين إلاَّ بك»[10].

ولهذا جاء في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما قوله ﷺ: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»؛ إشعارًا بأنَّ الله تعالى هو المسخِّر لكلِّ شيء، فإذا سألَ العبدُ حاجةً ـ كبيرةً كانت أم صغيرةً ـ؛ فعليه أن يسأل خالقها ومالكها، الَّذي يملك أنْ يوصلها إليه.

وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ السَّببَ الَّذي مِن أجله لا يُسأل إلاَّ الله ولا يُستعان إلاَّ به، فقال ـ في آخر الحديث ـ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[11]، وذلك لأنَّ الله تعالى هو الَّذي يكشف الضّرَّ، ويجلب النَّفع، وهذا كلُّه بيده، قال سبحانه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾

(8) انظر: «تفسير ابن كثير» (1/135)، «مجموع الفتاوى» (14/8)، «مدارج السَّالكين» (1/74).

(9) انظر: «مجموع الفتاوى» (1/89).

(10) انظر: «مدارج السَّالكين» (1/77).

(11) أخرجه التِّرمذي (2516) وأحمد (2763) وهو في «صحيح الجامع» (7957).

[يونس: 107]، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: 2].

والسِّرُّ في تقديم العبادة على الاستعانة ـ في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ ـ هو مِن باب تقديم الغايات على الوسائل، إذِ العبادة غاية العباد الَّتي خُلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، والعبادة من حقِّ الله تعالى، والاستعانة من حقِّ المستعين، والعبادة هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها.

ولِيُعْلم ـ أيضًا ـ أنَّ ذِكْر الوسيلة في طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة، ولأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: قِسْمُ الرَّبِّ، فكان مِن الشَّطر الأوَّل الَّذي هو ثناء على الله تعالى؛ لكونه أولى به، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: قِسْمُ العبد، فكان مع الشَّطر الَّذي له، وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ إلى آخر السُّورة، ولأنَّ العبادة المطلقة تتضمَّن الاستعانة مِن غير عكس، فكلُّ عابدٍ لله ـ عبوديَّةً تامَّةً ـ مُسْتعينٌ به، ولا ينعكس، ولأنَّ الاستعانةَ جزءٌ مِن العبادةِ مِن غير عكس، ولأنَّ الاستعانةَ طلبٌ منه، والعبادة طلبٌ له، ولأنَّ العبادةَ لا تكون إلاَّ من مُخلصٍ، والاستعانة تكون من مُخلصٍ ومن غير مُخلصٍ، ولأنَّ العبادةَ شُكرُ نعمةِ الله على العبدِ، واللَّه يحبُّ أن يُشْكر، والإعانةُ توفيقُ اللهِ للعبدِ، فالتزامه للعبوديَّة سببٌ لنيلِ الإعانةِ، وكلَّما كان العبدُ أتمَّ عبوديَّةً للهِ كانت الإعانةُ مِن الله له أعظم، فهذه الأسرار يتبيَّن بها حِكمة تقديم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[12].

وقد تضمَّنت هذه الآية أجلّ الغايات وأفضل الوسائل، فأجلُّ الغايات: عبوديَّته، وأفضل الوسائل: إعانته؛ فلا معبود يستحقُّ العبادة إلاَّ هو، ولا مُعين على عبادته غيرُه؛ فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلُّ الوسائل... وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعيْ التَّوحيد وهما: توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة؛ وتضمَّنت التَّعبُّد باسم الرَّبِّ واسم الله، فهو ـ سبحانه ـ يُعبد بألوهيَّته ويُستعان بربوبيَّته، ويهدي إلى الصِّراط المستقيم برحمته... وهو المنفرد بإعطاء ذلك كلِّه، لا يُعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه[13].

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: العبادة تجمع أصلين: غاية الحبِّ بغاية الذُّلِّ والخضوع، والتَّعبُّد: التَّذلُّل والخضوع، فمَن أحببتَه ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له، ومن خضعتَ له بلا محبَّة لم تكن عابدًا له، حتَّى تكون محبًّا خاضعًا.

والعبادة اسم جامع لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه مِن الأعمال والأقوال الظَّاهرة والباطنة، وإنَّما تكون العبادةُ عبادةً إذا كانت مأخوذةً من رسول الله ﷺ مقصودًا بها وجه الله تعالى، فبهذين الأمرين تكون العبادة[14].

(12) انظر: «مدارج السَّالكين» (1/75 ـ 77).

(13) انظر: «كتاب الصَّلاة وحُكم تاركها» (ص204 ـ 205).

(14) انظر: «تفسير السّعدي» (1/39).

ولا يكون العبد محققًا لـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلاَّ بهذين الأصلين العظيمين؛ وهما: إخلاص الدِّين لله، وموافقة أمره الَّذي بعث به رسله، وقد جمع ـ سبحانه ـ بين هذين الأَصْلَين في مواضع من كتابه[15].

وأهلُ الإخلاص للمعبود والمتابعة هم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقةً، فأعمالهم كلُّها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومَنْعهم لله، وحبُّهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ـ ظاهرًا وباطنًا ـ لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك ـ من النّاس ـ جزاءً ولا شُكورًا، ولا ابتغاءَ الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا مِن ذمِّهم، بل قد عدُّوا النَّاس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، وكذلكم أعمالهم وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولِمَا يحبُّه ويرضاه، وهذا هو العمل الَّذي لا يقبل الله مِن عامل سواه، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: 125][16].

وفي هذه الآية إشارة إلى تحقيق كلمة التَّوحيد؛ لأنَّ «لا إله إلاّ الله» مركَّبةٌ مِن ركنين، وهما: النَّفيُ بـ «لا إله» والإثباتُ «إلاّ الله»، فالنَّفيُ: خلعُ جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع العبادات، والإشارة إليه بتقديم المعمول على العامل في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾.

والإثباتُ: إفراد الله بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع، والإشارة إليه بقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾، وقد ذكر الله تعالى هذا مفصَّلا في آيات أخرى، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36][17].

والعبودية منقسمة على القلب واللِّسان والجوارح، وعلى كلٍّ منها عبوديَّة تخصُّه.

فعبوديَّة القلب: الإخلاص، والتَّوكُّل، والمحبَّة، والصَّبر، والإنابة، والخوف، والرَّجاء، والتَّصديق الجازم، والنِّيَّة في العبادات.

وعبوديَّة اللِّسان: النُّطق بالشَّهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما يتوقَّف صحَّة صلاته عليه، وتلفُّظه بالتَّشهُّد والتَّكبير والأذكار الواجبة في الصَّلاة، وردِّ السَّلام، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضَّالِّ، وأداء الشَّهادة المتعيِّنة، وصدق الحديث، ومن عبوديَّته: دوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النَّافع، وتوابع ذلك.

وعبوديَّة الجوارح؛ وهي على الحواس الخمسة: السَّمع، والنَّظر، والذَّوق، والشَّمِّ، واللَّمس.

فعبوديَّة السَّمع: الإنصات والاستماع لِما أوجبه الله تعالى ورسوله ﷺ مِن استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة

(15) انظر: «مجموع الفتاوى» (3/123).

(16) انظر: «مدارج السَّالكين» (1/83 ـ 84).

(17) انظر: «أضواء البيان» (1/7).

في الصَّلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع خُطبة الجمعة؛ ومن عبوديَّته: استماع المستحبِّ مِن العلم، وقراءة القرآن، و ذِكر الله، واستماع كلِّ ما يحبُّه الله تعالى ويرضاه.

وعبوديَّة النَّظر: النَّظر في المصحف وكتب العلم عند تعيُّن تعلُّم الواجب منه، والنَّظر إذا تعيَّن لتمييز الحلال مِن الحرام في الأعيان الَّتي يأكلها ويُنفقها ويستمتع بها، والأمانات الَّتي يؤدِّيها إلى أربابها ليميِّز بينها ونحو ذلك، ومِن ذلك: النَّظر في كتب العلم والدِّين الَّتي يزداد بها الرَّجُل إيمانًا وعلمًا، والنَّظر في آيات الله المشهودة ليستدلَّ بها على توحيده ومعرفته وحِكمته.

وعبوديَّة الذَّوق: تناول الطَّعام والشَّراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت، فإن تركه حتَّى مات، مات عاصيًا، قال الإمام أحمد وطاووس: «مَن اضطرَّ إلى أكل الميتة؛ فلم يأكل حتَّى مات، دخل النَّار»، ومن عبوديَّته: أكل ما يُعين على طاعة الله تعالى ممَّا أذِن الله تعالى فيه، والأكل مع الضَّيف ليطيب له الأكل فينال منه غرضه، والأكل مِن طعام صاحب الدَّعوة.

وعبوديَّة الشَّمِّ: شمُّ ما تعيَّن طريقًا للتَّمييز بين الحلال والحرام، كالشَّمِّ الَّذي تُعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيِّبة؟ وهل هي سمٌّ قاتل أو لا مضرَّة فيها؟ ومنه: شمُّ ما يُعين على طاعة الله، ويُقوِّي الحواس، ويبسط النَّفس للعلم والعمل، لهذا ورد في السُّنَّة أنَّ الطِّيب والرَّيحان إذا أهدي لا يردُّ؛ لأنَّه طيِّب الرِّيح خفيف المحمل[18].

وعبوديّة اللَّمس والبطش: كالتَّكسُّب المقدور للنَّفقة على النَّفس والأهل والعيال، وإعانة المضطرِّ، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والغسل والتَّيمُّم، ونحو ذلك، ومن عبوديَّتهما: لمس الرُّكن باليد - في الطَّواف - وككتابة ما فيه منفعة في الدِّين، أو مصلحة لمسلم، وكالإحسان باليد؛ بأن تُعين صانعًا، أو تُفرغ مِن دلوك في دلو المستسقي، أو تَحمل له على دابَّته، أو تُمسكها حتَّى يَحمل عليها، أو تعينه فيما يحتاج إليه.

وعبوديَّة المشي: المشي إلى الجُمعات والجَماعات، والمشي حول الكعبة للطَّواف، والمشي بين الصَّفا والمروة، والمشي إلى صِلة الرَّحم وبرِّ الوالدين، والمشي إلى مجالس العلم لطلبه وتعلُّمه[19].

وإنَّ أفضل العبادة أنْ تعمل على مرضاة الله - في كلِّ وقت - بما هو مُقتضى ذلك الوقت ووظيفته؛ فأفضل العبادات في وقت الجهادِ الجهادُ، وإنْ آل ذلك إلى ترك الأوراد مِن صلاة اللَّيل، وصيام النَّهار، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حُضور الضَّيف - مثلاً -: القيام بحقِّه، والاشتغال به عن الورد المستحبِّ، وكذلك في أداء حقِّ الزَّوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السَّحر: الاشتغال بالصَّلاة، وتِلاوة القرآن، والدُّعاء، والذِّكر، والاستغفار.

(18) روى مسلم في «صحيحه» (2253) عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلاَ يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ المَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ**».

(19) انظر: «مدارج السَّالكين» (1/4 - 66).

والأفضل في وقت استرشاد الطَّالب وتعلُّم الجاهل: الإقبال على تعليمه، والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذّن.

والأفضل في أوقات الصَّلوات الخمس: الجدُّ والنُّصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أوَّل الوقت، والخروج إلى المسجد ـ وإن بَعُدَ ـ وذلك أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على الأوراد.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التَّضرُّع، والدُّعاء، والذِّكر، دون الصَّوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيَّام عشر ذي الحجَّة: الإكثار من التَّعبُّد، لا سيما التَّكبير، والتَّهليل، والتَّحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعيّن.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه، والخلوة، والاعتكاف دون التَّصدِّي لمخالطة النَّاس، والاشتغال بهم حتَّى إنَّه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته، وتشييعه.

والأفضل في وقت نُزول النَّوازل وأذاة النَّاس: أداء واجب الصَّبر، مع الخلطة بهم، دون الهرب منهم، فإنَّ المؤمن الَّذي يخالط النَّاس؛ ليصبرَ على أذاهم أفضل من الَّذي لا يخالطهم ولا يؤذونه[20].

فالأفضل في كلِّ وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه، وهؤلاء هم أهل التَّعبُّد المطلق، وهم المتحقّقون بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًّا[21].

وتلزم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كلَّ عبدٍ إلى الموت؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة الحجر]، وقد حكى تعالى عن أهل النَّار قولهم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة المدثر]، واليقين ـ ها هنا ـ: هو الموت ـ بإجماع أهل التَّفسير ـ فلا ينفكُّ العبد من العبوديَّة ما دام في دار التَّكليف، بل عليه ـ في البرزخ ـ عبوديَّة أخرى، لَمَّا يسأله الملَكان: مَن ربُّك؟ وما دينك؟ ومَن الرَّجل الَّذي بُعِث فيكم؟ ويلتمسان منه الجواب، وعليه عبوديَّة أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلَّهم إلى السُّجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفَّارُ والمنافقون لا يستطيعون السُّجود: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة القلم]، ومَن زَعم أنَّه يَصِلُ إلى مقامٍ يسقطُ عنه التَّعبُّد فهو زنديقٌ، كافرٌ بالله ورسوله ﷺ، وإنَّما وصل إلى مقام الكفر بالله

(20) لقوله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ» رواه أحمد (23147) وابن ماجه (4032)، وهو في «السِّلسلة الصَّحيحة» (939)، والحديث يدلُّ على أنَّ المخالِط الصَّابر خيرٌ من المعتزِل.

(21) انظر: «مدارج السَّالكين» (1/ 88 ـ 89).

والانسلاخ من دينه[22].

قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: الاستعانة هي طلب العون والتَّأييد والتَّوفيق من الله تعالى، وهي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضارِّ، مع الثِّقة بالله في تحصيل ذلك، وتكون بلسان المقال، كأن تقول ـ مثلاً ـ عند شروعك في عمل ما: «اللَّهمَّ أعنِّي»، كما تكون بلسان الحال أيضًا، وهي أنْ تشعر بقلبك أنَّك مُحتاج إلى إعانة الله لك لإنجاح عملك، وأنَّه إنْ وَكَلَك إلى نفسك وَكَلَك إلى عجز وضعف، والغالب أنَّ مَن استعان بلسان المقال؛ فقد استعان بلسان الحال.

والاستعانة بالله واجبة عند تحمُّل الطَّاعات وأدائها، وترك المنهيَّات واجتنابها، كما تجب الاستعانة بالله على الصَّبر على المقدورات؛ لأنَّ العبد عاجزٌ عن الاستقلال بنفسه في جلب النَّفع لها ودفع الضَّرِّ عنها، ولا مُعين للإنسان على مصالح دينه ودنياه إلاَّ الله سبحانه.

وكرَّر الضَّمير «إيَّاك» للتَّنصيص على أنَّه ـ تعالى ـ هو المستعان به لا غيره، وإطلاق الاستعانة بقصد التَّعميم، أي: نستعينك في كلِّ شيء ـ صغيره وكبيره، عظيمه وجليله ـ فلا سبيل للعبد إلاَّ بالمعونة، والمعنى: ثبِّتنا ـ يا ربُّ ـ على العمل بطاعتك، وإصابة الحقِّ والصَّواب.

وذكر الله تعالى «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، وهذا له نظائر، كما في قوله تعالى:

(22) انظر: «مدارج السَّالكين» (1/103 ـ 104).

﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]، والفحشاء مِن المنكر، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: 90]، وإيتاء ذي القربى هو مِن العدل والإحسان، كما أنَّ الفحشاء والبغي مِن المنكر، وأمثال ذلك في القرآن كثير.

فلماذا ـ إذنْ ـ عطف الله على العبادة غيرها؟

الجواب: مع كون الاستعانة بعض العبادة ـ لأنَّ جميع ما يحبُّه الله تعالى داخل في اسم العبادة ـ غيرَ أنَّ الآيةَ الكريمةَ ذكرت ـ مع العبادةِ ـ الاستعانةَ، تخصيصًا لها بالذِّكر، لكونها مطلوبة بالمعنى العامِّ والمعنى الخاصِّ، وأيضًا لاحتياج العبد في جميع عباداته للاستعانة بالله تعالى؛ فإنَّه إنْ لم يُعِنْه ربُّه لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النَّواهي، ولهذا قيل: إنَّ «الواو» ـ في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ـ: للحال، فيكون المعنى: نعبدك مُستعينين بك.

وفي الآية إشارة إلى أنَّه لا ينبغي أن يُتوكَّل إلاَّ على مَن يستحقُّ العبادة؛ لأنَّ غيره ليس بيده الأمر، ومِن هنا تعلم أنَّ الَّذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم، وتيسير أمورهم، وشفاء أمراضهم، ونماء حرثهم وزرعهم، وهلاك أعدائهم، وغير ذلك من المصالح، فهؤلاء عن صراط التَّوحيد ناكبون، وعن ذكر الله مُعرضون.

وقد أرشدتنا هذه الآية: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى أمرين عظيمين هما سبب السَّعادة في الدَّارين؛ الدُّنيا والآخرة:

أحدهما: القيام بالأعمال النَّافعة، والاجتهاد في إتقانها قدْر الاستطاعة مع طلب المعونة من الله تعالى على ذلك.

ثانيهما: وُجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده، وهذا لما أفاد الحصر، وهو مِن كمال التَّوحيد الخالص، فيكون المؤمن مع النَّاس حُرًّا خالصًا وسيِّدًا كريمًا، ومع الله عبدًا خاضعًا[23].

وتأتي الاستعانة على أنواع:

الأوَّل: استعانة تتضمَّن كمال الذُّلِّ مِن العبد للمُستعان به، وتفويض الأمر إليه، واعتقاد كفايته؛ وهذه لا تكون إلاَّ لله تعالى، ودلَّ عليها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وصرف هذا النَّوع لغير الله تعالى شركٌ مُخرجٌ عن الملَّة.

الثَّاني: الاستعانة بالمخلوق على أمر يقدر عليه، وهذه على حسب المستعان عليه، فإنْ كانت على خير فهي مشروعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: 2]، وقوله ﷺ: «**كُلُّ سُلاَمَى مِن النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»[24]، وإنْ كانت على محرَّم فهي ممنوعة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة].

والاستعانة بالمخلوق إذْ تُشرع؛ فعلى المستعين أنْ يجعل ذلك وسيلة وسببًا، لا ركنًا يعتمد عليه، كما أنَّ عليه إشعارَ مَن يستعينه بأنَّه بمثابة معونة بعض أعضائه لبعض، كما لو عجز عن حمل شيء بيد واحدة؛ فإنَّه يستعين على حمله بيده الأخرى.

الثَّالث: الاستعانة بمخلوق حيٍّ حاضر غير قادر؛ فهذه لغو لا طائل تحتها، مثل أنْ يستعين بشخص ضعيف على حمل شيء ثقيل.

الرَّابع: الاستعانة بالأموات مطلقًا أو بالأحياء على أمر الغائب لا يقدرون على مباشرته ممَّا هو من خصائص الله تعالى؛ فهذا شرك لأنَّه لا يقع إلاَّ مِن شخص يعتقد أنَّ لهؤلاء تصرُّفًا خفيًّا في الكون.

الخامس: الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلى الله تعالى؛ وهذه مشروعة بأمر الله تعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة][25].

---

(23) «تفسير السَّعدي» (39/1)، «أضواء البيان» (7/1)، «تفسير المنار» (50/1)، «مجموع الفتاوى» (174/10).

(24) أخرجه البخاري (2827) ومسلم (2382).

(25) انظر: «شرح الأصول الثلاثة» للشيخ ابن عثيمين (ص62 ـ 63).

ولَمَّا كان كلُّ واحدٍ مِن البشر مُحتاجًا إلى إعانة الله وتوفيقه، بحيث لا يمكنه الاستغناء عنها طرْفة عين، أمرنا بها النَّبيُّ ﷺ، ونهانا عن العجز والكسل، فقال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[26].

قال النَّووي: «ومعناه: احرص على طاعة الله تعالى والرَّغبة فيما عنده، واطلب الإعانة مِن الله تعالى على ذلك، ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطَّاعة، ولا عن طلب الإعانة»[27].

ولذا كان النَّبيُّ ﷺ يدعو ربَّه تعالى ويسأله أن يُعينه ولا يُعين عليه أحدًا يُلحق به ضررًا، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو: **رَبِّ أَعِنِّي وَلاَ تُعِنْ عَلَيَّ...**» الحديث[28].

وأفضل أنواع الاستعانة ما كان على طاعة الله تعالى والبرِّ والإحسان، فعَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ! وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ! لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[29].

والعبوديَّةُ محفوفةٌ بإعانتين: إعانةٍ قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانةٍ بعدها على عبوديَّة أخرى، وهكذا أبدًا حتَّى يقضي العبد نحبه[30].

نسأل الله تعالى أنْ يوفِّقنا لِما يحبُّه ويرضاه وأن يختم بالباقيات الصَّالحات أعمالنا، ويجعلنا ممَّن حققوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.



(26) رواه مسلم في «صحيحه» (2664) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(27) «شرح صحيح مسلم» (215/16).

(28) أخرجه التِّرمذي (3551) وأبو داود (1510) وابن ماجه (3830)، وهو في «صحيح الجامع» (3485).

(29) أخرجه أبو داود (1522)، وأحمد (22172)، وهو في «صحيح الجامع» (7969).

(30) انظر: «مدارج السَّالكين» (76/1).

من أدب الإسلام في تشييــع الجنــائز

عبد المجيد تالي
ليسانس في الشريعة الإسلامية ـ الجزائر

إنَّ تشييع الجنائز حقٌّ من حقوق المسلم على أخيه المسلم، وهو قربةٌ مِنَ القربات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ شَهِدَ الجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا، فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ، فَلَهُ قِيرَاطَانِ**»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «**مِثْلُ الجَبَلَيْنِ العَظِيمَيْنِ**» [متَّفق عليه].

وعنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ اتَّبَعَ جنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بقِيرَاطٍ**» [رواه البخاري (47)].

وهي سبب من أسباب الاتِّعاظ وذكر الآخرة؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُودُوا المَرِيضَ، وَامْشُوا مَعَ الجَنَائِزِ، تُذَكِّرْكُمُ الآخِرَةَ**»[1].

فالقصد من تشييع الجنائز إذن، هو التَّقرُّب إلى الله تعالى وتَذَكُّرُ الآخرة، ومواطن القُرَب والتِّذْكار ممَّا يتطلَّب فيها الخشوع، وحضور القلب، وخُلُوُّ البال، مع الاعتبار.

لذا كان من الأدب الشَّرعي والهَدْي النَّبويِّ في تشييع الجنائز، واتِّباعها؛ لزوم السَّكينة مع الصَّمت.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تُتْبَعُ الجنَازَةُ بصَوْتٍ وَلاَ نَارٍ**»[2]، وهو عام يشمل كلَّ نار وكلَّ صوت.

وعن قيس بن عُبَاد ـ وهو من أكابر التَّابعين

(1) أخرجه أحمد (11180، 11270، 11445)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (1503)، وابن حبَّان (2955)، وإسناده حسن، أفاده الشَّيخ الألباني رحمه الله في «أحكام الجنائز» (ص87).

(2) رواه أبو داود (3171)، وأحمد (9515، 1031، 10880)، قال أحمد شاكر: «صحيح»، وانظر: «أحكام الجنائز» (91).

من أصحاب عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ـ قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصَّوت عند الجنائز، وعند القتال، وعند الذِّكر»[3].

ومثله عن الحسن البصري رحمه الله قال: «أدركت أصحاب رسول الله ﷺ وهم يستحبُّون خفض الصَّوت عند الجنائز، وعند قراءة القرآن، وعند القتال»[4].

فأفاد هذان الأثران أنَّ مِنْ هدي السَّلف ـ رحمهم الله ـ: خفض الصَّوت، والتزام السَّكينة حال تشييعهم للجنائز، بل كانوا ـ رحمهم الله ـ يعظِّمون الميِّت بذلك.

فعن أيُّوب السَّخْتِياني عن أبي قِلابة عبد الله بن زيد الجرمي ـ قال: كنَّا في جنازة، فرفع ناس من القصَّاص أصواتهم، فقال أبو قلابة: «كانوا يعظِّمون الميِّت بالسَّكينة»[5].

بل كان الواحد منهم ربَّما يريد أن يلقى صاحبه لحاجة تقع له عنده؛ فيلقاه في الجنازة فلا يزيد على السَّلام الشَّرعيِّ شيئًا؛ لشغل كلٍّ منهما بما هو فيه.

يروى ذلك عن مُطَرِّف بن عبد الله ابن الشِّخِّير رحمه الله: فعن صالح المُري ـ وهو ابن بشير ابن وادع الواعظ الزَّاهد ـ عن بُدَيل بن ميسرة العقيلي ـ قال: «كان مُطَرف يلقى الرَّجل من خاصَّة إخوانه في الجنائز فعسى أن يكون غائبًا؛ فما يَزيدُه على التَّسليم ثمَّ يُعْرِضُ عنه اشتغالاً بما هو فيه»[6].

بل كانوا يكرهون رفع الصَّوت بالذِّكر ـ مِنْ قِراءةِ قرآنٍ أو تسبيحٍ أو تهليلٍ ـ خلفها؛ لأنَّ ذلك كله خلاف الهدي الأوَّل.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن البنَّا السَّاعاتي رحمه الله في شرحه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه سابق الذِّكر: «وقوله: «ولا صوت» يشمل صوت النِّياحة والقراءة والذِّكر، وغير ذلك ممَّا يُفعل الآن أمام الجنائز، فكلُّ هذا منهيٌّ عنه لا يجوز فعله» اهـ[7].

بل كرهوا ـ رحمهم الله تعالى ـ قول الرَّجل خلف الجنازة: «استغفروا له»، وعدُّوا ذلك من البدع المحدثة.

قال أبو بكر بن المنذر في «الأوسط» (5/389 ـ 390): «وكره سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، والنخعي، وأحمد، وإسحاق قول القائل خلف الجنازة: استغفروا له، قال عطاء: محدثة، وقال الأوزاعي: بدعة... قال أبو بكر ـ ابن المنذر ـ: ونحن نكره من ذلك ما كرهوا»[8].

قال فضيل بن عمرو: بينما ابن عمر في جنازة إذ سمع قائلاً يقول: استغفروا له، غفر الله لكم، فقال ابن عمر: «لا غفر الله لك»[9].

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (11304)، ووكيع في «الزُّهد» (211)، وابن المبارك في «الزُّهد» (247)، والبيهقي في «سننه» (4/74)، والخطيب في «تاريخه» (8/91)، وأبو نعيم في «الحلية» (9/58)، وابن المنذر في «الأوسط» (3056).

(4) أخرجه عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (6281).

(5) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (11303) (ط/الرُّشد).

(6) أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد» (245)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (58/332).

(7) انظر: «الفتح الرَّبَّاني» (8/ 20).

(8) انظر: «الإشراف» له (2/343).

(9) رواه سعيد بن منصور في «سننه»، على ماذكر ابن قُدامة في «المغني» (3/400 ـ عالم الكتب)، ولم أجده في المطبوع من «سننه».

قال في «الفروع» (206/2) (ط/دار الكتب العلميَّة): «قال صاحب «المحرر» ـ وهو عبد السَّلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني أبو البركات ـ: ولم ينقل عن صحابيٍّ ولا تابعيٍّ خلافه إلاَّ ما روى أحمد عن أنس أنَّه شهد جنازة أنصاريٍّ فأظهروا له الاستغفار فلم ينكره[10]، ولا يعارض صريح القول[11]» اهـ.

وعن بُكَيْر بن عُتَيْق العامري قال: كنت في جنازة فيها سعيد بن جبير، فقال رجل: «استغفروا له، غفر الله لكم»، قال سعيد ابن جبير: «لا غفر الله لك»[12].

وعن مغيرة ـ وهو ابن مقسم الضبي ـ عن إبراهيم ـ النَّخعي ـ قال: كان يُكْرَه أن يتبع الرَّجل الجنازة، يقول: «استغفروا له، غفر الله لكم»[13]، ومثله عن عطاء، والحسن[14].

قال أبو شامة المقدسي رحمه الله في «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص92): «وإنَّما كره ذلك ـ أي ابن عمر ـ لِمَا فيه من التَّشويش على المشيِّعين الموفَّقين المفكِّرين في أحوالهم ومعادهم على ما أشارت إليه هذه الآثار» اهـ.

وقد بيَّن الإمام القدوة محمَّد بن سيرين رحمه الله أوَّل حدوث هذه البدعة وزمن ظهورها.

فعنه رحمه الله قال: «أوَّل ما سمعت في جنازة «استغفروا له»؛ في جنازة سعد بن أوس»[15].

فإذا كان هذا هو الموروث عن السَّلف رضي الله عنهم في الدُّعاء بالمغفرة والذِّكر؛ فكيف بما هو دون ذلك بكثير، بل كيف بما هو من حديث وفعل النَّاس اليوم؟!!

وعلى مثل ذا ـ أي: الموروث عن السَّلف ـ درج الأئمَّة الأعلام من هذه الأمَّة؛ من تعظيمهم لهذا الأمر وسلوكهم للأدب الشَّرعيِّ فيه:

قال الإمام ابن قُدامة المقدسي رحمه الله: «ويستحبُّ لمتَّبع الجنازة أن يكون متخشِّعًا، متفكِّرًا في مآله، متَّعظًا بالموت، وبما يصير إليه الميِّت، ولا يتحدَّث بأحاديث الدُّنيا، ولا يضحك، قال سعد ابن معاذ: «ما تبعت جنازة فحدَّثت نفسي بغير ما هو مفعول بها»، ورأى بعض السَّلف رجلاً يضحك في جنازة، فقال: «أتضحك وأنت تتَّبع الجنازة؟ لا

---

(10) في «المسند» (4080)، وإسناده صحيح، كما قال الشَّيخ أحمد شاكر رحمه الله.

قوله: «فلم ينكره» أي: أنس رضي الله عنه، وقال هُشَيْمٌ ـ وهو شيخ أحمد فيه ـ مَرَّةً إِنَّ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ مَاتَ بِالبصْرةِ فَشَهِدَهُ أَنَسُ بن مَالِكٍ فَأَظْهَرُوا له الاسْتِغْفَارَ.

(11) أي: في النَّهي عن ذلك.

(12) أخرجه ابن أبي شيبة (11295)، وعبد الرَّزَّاق (6243).

(13) أخرجه ابن أبي شيبة (11294).

(14) نفسه (11297 و11300).

(15) نفسه (11298).

تنبيه: ولعلَّ سعد بن أوس هذا، هو نفسه الأنصاري الَّذي شهده أنس رضي الله عنه؛ بدليل أنَّ راوي الأثر فيه عن أنس رضي الله عنه هو محمَّد بن سيرين قائل: «أوَّل ما سمعت في جنازة»، وهو بصريٌّ، والجنازة كانت بالبصرة، ومن جهة أخرى: فإنَّ هذا الأمر لم يكن معهودًا عندهم، لذا قال فيه ما قال، كما أنَّ ظاهر الأثر عن أنس يدلُّ على أنَّ ابن سيرين شهد ذلك معه، وسواء كان هذا أو ذاك؛ فإنَّ أثر محمَّد ابن سيرين يدلُّ صراحةً على أنَّ هذا الَّذي أحدث لم يكن معهودًا، والله أعلم.

كلَّمتك أبدًا» اهـ[16].

وقال الإمام النَّووي رحمه الله في «الأذكار» (ص320):

«...وليحذر كلَّ الحذر مِنَ الحديث بما لا فائدة فيه، فإنَّ هذا وقتُ فِكْرٍ وَذِكْرٍ تَقْبُح فيه الغفلة واللَّهو والاشتغال بالحديث الفارغ، **فإنَّ الكلام بما لا فائدة فيه منهيٌّ عنه في جميع الأحوال، فكيف في هذا الحال؟**

واعلم أنَّ الصَّواب المختار ما كان عليه السَّلف رضي الله عنهم: السُّكوت في حال السَّير مع الجنازة، فلا يَرْفَع صوتًا بقراءة، ولا ذِكْرٍ، ولا غير ذلك، والحكمة فيه ظاهرة، وهي أنَّه أسكن لخاطره، وأجمع لفكره فيما يتعلَّق بالجنازة، وهو المطلوب في هذا الحال، فهذا هو الحقُّ، ولا تَغْتَرَّنَّ بكثرة من يُخالفه، فقد قال أبو عليٍّ الفضيل بن عياض رضي الله عنه ما معناه: الزم طرق الهدى، ولا يضرُّك قلَّةُ السَّالكين، وإيَّاك وطرق الضَّلالة، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين، وقد روينا في «سنن البيهقي» ما يقتضي ما قلته[17]».

وقال رحمه الله: (ص319):

«باب ما يقوله الماشي مع الجنازة: يستحبُّ له أن يكون مشتغلاً بذكر الله تعالى، والفكر فيما يلقاه الميِّت، وما يكون مصيره، وحاصل ما كان فيه، وأنَّ هذا آخر الدُّنيا ومصير أهلها»[18].

وقال أبوالعبَّاس أحمد بن يحي الونشريسي رحمه الله: وقد سُئل عمَّا يَفعله النَّاس في جنائزهم حين حملها من جهرهم بالتَّهليل والتَّصلية والتَّبشير والتَّنذير ونحو ذلك على صوتٍ واحد أمام الجنازة[19]، كيف حكم ذلك في الشَّرع؟

فأجاب رحمه الله بمايلي:

«**السُّنَّة في اتِّباع الجنائز الصَّمت والتفكُّر والاعتبار**، خرَّج ابن المبارك أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا اتَّبع جنازة أكثر الصَّمت وأكثر حديث نفسه، قال: فكانوا يرون أنَّه يحدِّث نفسه بأمرِ الميِّت وما يرد عليه وما هو مسؤول عنه[20]، وذُكر أنَّ مُطَرِّفًا كان يَلْقَى الرَّجلَ من إخوانه في الجنازة، وعسى أن يكون غائبًا، فما يزيد على التَّسليم يعرض عنه اشتغالاً بما هو فيه.

فهكذا كان السَّلف الصَّالح، واتِّباعهم سنَّة ومخالفتهم بدعة، وذكر الله والصَّلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عملٌ صالح مرغَّب فيه في الجملة، لكن للشَّرع توقيت وتحديد في وظائف الأعمال، وتخصيص يختلف باختلاف الأحوال، والصَّلاة وإن كانت مناجاة الرَّبِّ، وفي ذلك قُرَّة عينِ العبد، تدخل في أوقات تحت ترجمة الكراهة والمنع، إنَّ الله يحكم ما يريد»[21].

(16) «المغني» (3/397 ـ 397 ـ عالم الكتب).

(17) يريد أثر قيس بن عُبَاد.

(18) «الأذكار» (ص320)، وانظر: «روضة الطَّالبين» (1/630 ـ عالم الكتب)، و«المجموع شرح المهذَّب» (5/321).

(19) وللأسف الشَّديد فإنَّ هذه البدع لا تزال ساريةً في بعض جهات بلدنا، وهو ما يُعرف عند العامَّة باسم (الجلالة) ـ على حسب ما رأيناه وشاهدناه ـ كأنَّها سنن مأثورة، وكذلك الإحداث في الدِّين يفعل ويفعل، والله المستعان.

(20) في «الزُّهد» له (244)، وابن أبي شيبة (11305): ضعيف، «ضعيف الجامع» (4425).

(21) «المعيار المعرب» (1/313 ـ 314).

وقال رَحِمَهُ الله مرَّةً: لَمَّا سُئل عن الجهر بالذِّكر أمام الجنازة على صوتٍ واحدٍ وكيف حكمه؟

فأجاب رَحِمَهُ الله: «إنَّ ذكر الله والصَّلاة على رسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ من أفضل الأعمال، وجميعه حسن، لكن للشَّرع وظائف وقَّتَها، وأذكار عيَّنها في أوقات وقَّتها، فوضعُ وَظيفةٍ مَوْضِعَ أخرى بدعةٌ، وإقرار الوظائف في محلِّها سُنَّة، **وتلقِّي وظائف الأعمال في حمل الجنائز إنَّما هو الصَّمت والتَّفكُّر والاعتبار، وتبديل هذه الوظائف بغيرها تشريع، ومن البدع في الدِّين**، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: 32] نهي عن أن يزكِّي بعض النَّاس بعضًا تزكية السُّمعة والمدح للدُّنيا، وكأنَّ وَليَّ الميِّت يزكِّي ميِّته بذلك الفعل من قبل نفسه ليعتقد ذلك له ولميِّته»[22].

وجاء في «الموسوعة الكويتيَّة» (17/16) ما نصُّه: «وفي «السِّراج»: يستحبُّ لمن تبع الجنازة أن يكون مشغولاً بذكر الله تعالى، أو التَّفكُّر فيما يلقاه الميِّت، وأنَّ هذا عاقبة أهل الدُّنيا، وليحذر عمَّا لا فائدة فيه من الكلام، **فإنَّ هذا وقت ذكرٍ وموعظة، فتقبح فيه الغفلة، فإنْ لم يذكر الله تعالى فيلزم الصَّمت**، ولا يرفع صوته بالقراءة ولا بالذِّكر، ولا يغترّ بكثرة من يفعل ذلك، وأمَّا ما يفعله الجُهَّال من القراءة مع الجنازة؛ من رفع الصَّوت والتَّمطيط فيه؛ فلا يجوز بالإجماع...».

أخي القارئ الكريم!.. هذا بعض أدب القوم الماضين ـ في هذه الشَّعيرة ـ الَّذين أمرنا باتِّباعهم واقتفاء آثارهم، إذ هم ـ والله ـ القوم الَّذين لا يشقى ولا يضلُّ مقتفي آثارهم.

أمَّا المشاهَد والملاحَظ في جنائز النَّاس اليوم ـ أعني حال تشييعهم ـ، فهديٌ غير هدي القوم، وأدبٌ غير أدبهم.

فالقوم كانت جنائزهم مواعظ للمذنبين، وذكرى للغافلين، وسببًا للفكرة فيما هم إليه صائرون وعليه قادمون، لذا كانت تعلوهم السَّكينة والخشوع والتَّضرُّع فيها حتَّى إنَّ صاحب المصيبة كان لا يُعْرَف من بينهم لكثرة حزن الجميع.

أمَّا جنائزنا، وما أدراك ما جنائزنا! موطن الغفلة، واللَّهو، واللَّغط...، غيبة ونميمة...، رُكْنٌ للتَّعارف والصِّلات، حديث القوم منصبٌّ كلُّه فيما خلفه وتركه لورثته، لا يفكِّر بعض أقرانه وورثته إلاَّ في الحيلة الَّتي يتناول بها بعض ما خلفه.

أمَّا القوم الَّذين أمرنا باتِّباعهم واقتفاء آثارهم؛ فإليك بيان حالهم:

عن يحيى بن وثاب الكوفي (ت/103 هـ) ـ قال: «كانوا إذا كانت فيهم جنازة عرف ذلك في وجوههم أياما»[23].

وعن محمَّد بن سُوقَة ـ الغَنَوي ـ قال: زعموا أنَّ إبراهيم كان يقول: «كنَّا إذا حضرنا جنازة أو سمعنا بميِّت يُعرف ذلك فينا أيَّامًا؛ لأنَّا قد عرفنا أنَّه قد نزل به أمرٌ صيَّره إلى الجنَّة أو

(22) «المعيار المعرب» (1/314).

(23) أخرجه ابن أبي شيبة (36379).

النَّار، وإنَّكم تتحدَّثون في جنائزكم بحديث دنياكم»[24].

وعن الأعمش ـ سليمان بن مهران ـ قال: «كنَّا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزِّي لحزن القوم»[25].

وعن ثابت البناني قال: «كنَّا نتبع الجنائز فما نرى إلاَّ مقنَّعًا باكيًا أو متفكِّرًا»[26].

وعن يوسُفَ بن عَبد الله الحُلْوَانِيُّ، حدَّثنَا عثمان بن الهَيْثَمِ؛ قال: «كَانَ الحَسَنُ إِذَا عَادَ مَرِيضًا؛ لَمْ يَنْتَفِعْ بهِ أَهْلُهُ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَإِذَا شَيَّعَ جِنَازَةً؛ لَمْ يَنْتَفِعْ بهِ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ وَإِخْوَانُهُ ثَلاَثًا»[27].

فجنائز القوم كانت **نفعًا لهم ولإخوانهم**، أمَّا جنائزنا فلا لنا ولا لإخواننا، بل ربَّما علينا ـ سلَّمنا الله ـ.

وهنا أصلٌ لابدَّ لكلِّ مسلم أن يتدبَّره، ويلتزمه وهو: «**أنَّ المؤمن لابدَّ أن يجتمع له في أعماله التَّعظيم لأمر الله والرَّحمة لعباد الله**».

قال شيخ إسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالمؤمن المتَّبع للسُّنَّة يحسن إلى الخلق ويطلب الأجر من الخالق، فيكون قائمًا بحقِّ الله وحقِّ عباده، قد أتى بحقيقة الصَّلاة، وهي أن يعبد الله وحده، وحقيقة الزَّكاة وهي الإحسان إلى الخلق، **فيجتمع له التَّعظيم لأمر الله والرَّحمة لعباد الله**، فيصلِّي على جنازة المسلم **بقصد انتفاع الميِّت بالدُّعاء له وما يحصل له من الله من الأجر بإحسانه إلى الميِّت**، ويزور قبر أخيه المسلم من الصَّحابة والتَّابعين وأهل البيت وغيرهم، بل من الأنبياء والمرسلين، كما يصلِّي على جنازته، فيسلِّم عليه، ويدعو له، فيرحم الله الميِّت باستجابة الدُّعاء، ويثيب الله السَّاعي في وصول النَّفع والرَّحمة على الإحسان» اهـ[28].

أخي القارئ الكريم! هذا هو مذهب الأئمَّة، والمأثور عن السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين، لا يعلم لهم فيه مخالف، بل قد اتَّفق أهل العلم بالحديث والآثار أنَّ هذا الَّذي أُحْدِثَ لم يكن على عهد القرون الثَّلاثة المفضَّلة[29]، فتمسَّك به، وفَّقني الله وإيَّاك للتَّمسُّك بالسُّنَّة والجماعة، وأحيانا وأماتنا عليها برحمته، آمين، والحمد لله ربِّ العالمين.



(24) نفسه (36399).

(25) أخرجه ابن أبي شيبة.

(26) أخرجه ابن الجعد في «مسنده» (1397).

(27) أخرجه أبو بكر الدِّينوري المالكي في «المجالسة» (967 ـ بتحقيق مشهور)، وابن قتيبة الدِّينوري في «عيون الأخبار» (274/1) عن سالم بن سالم البَلخيّ عن السريّ بن يحيى.

(28) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (ص101)، وانظر ما قبلها وما بعدها؛ فإنَّه في غاية الأهميَّة.

(29) انظر: «مجموع الفتاوى» (24/293، 294).

حقوق الله تعالى وحقوق رسوله ﷺ

حسن أيت علجت

إنَّ اللهَ ـ تبارك وتعالى ـ خلَقَ الخلْقَ لحِكْمَةٍ سَامِيَةٍ، وغايَةٍ جليلَةٍ؛ ألاَ وهِيَ عِبادَتُه وطاعَتُه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، ثُمَّ أرْسَلَ ـ جَلَّ في عُلاه ـ حُشُودًا من الأنبياء والرُّسُلِ إلى خَلْقِهِ، ليُذَكِّرُوهُم ويأْمُروهُم بما خُلِقوا مِنْ أجْلِه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل]، وختَمَهُم بالرَّسُول الأكْرَم، والنَّبيِّ الأعْظَم: محمَّدِ ابنِ عبْد الله ﷺ، فاقْتَدَى بهُداهُم، وسلَكَ سبيلَهُم في الدَّعْوَة إلى عِبادَة الله وحْدَهُ لا شريك له.

وإنَّ مِنْ مُقْتَضَى هذه العِبادَةِ الَّتي خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ من أجْلِهَا الخلْقَ: معْرِفَةَ حقوقِ هذا المُرْسِلِ ـ الَّذي هو اللهُ عزَّ وجلَّ ـ وحُقوقِ رسُولِه ﷺ؛ والقيامَ بهذه الحُقُوقِ، قيَامًا لا وَكْسَ فيه ولا شَطَطَ.

ذلك بأنَّ للّهِ تعالى حُقُوقًا مُخْتَصَّةً به، لا يجوزُ أنْ يُشْرِكَهُ فيها غيْرُه، ولرَسُولِهِ ﷺ ـ أيضًا ـ حُقُوقًا ثابتَةً، لا يجوزُ أنْ يُبْخَسَها، كمَا أنَّ هناك حُقُوقًا مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الله عزَّ وجلَّ، وعَبْدِهِ ورسُولِه مُحمَّدٍ ﷺ.

مِنْ أجْلِ ذلك؛ فإنَّ اللهَ ـ جلَّ وعَلاَ ـ كثِيرًا ما يُمَيِّزُ في كتابه الكريمِ بين هذه الحُقُوقِ، ويفرِّقُ بَيْنَ مَا فِيهِ حَقٌّ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَبَيْنَ مَا هُوَ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ وَحْدَهُ؛ وذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح]؛ فَالتَّعْزِيرُ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَالتَّوْقِيرُ ـ أيضًا ـ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَالتَّسْبِيحُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً لِلَّهِ سبحانه وتعالى[1].

وقد ذكَر ذلك الإمام البغوي رحمه الله في «تفسيره» (299/7) فقال:

(1) انظر: «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة لشيخ الإسلام ابن تيمية (445/2 ـ 446، ط: جامعة الإمام).

«﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾؛ أيْ: تُعِينُوهُ، وتَنْصُرُوه.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: تُعَظِّمُوهُ، وتُفَخِّمُوهُ.

هذه الكِنَايَاتُ راجِعَةٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، وها هنا وَقْفٌ.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أيْ: تُسَبِّحُوا اللّه عَزَّوَجَلَّ؛ يُرِيدُ: تُصَلُّوا له.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: بالغَدَاةِ، والعَشِيِّ» اهـ.

وَكذلك جاء هذا التَّمْييزُ والتَّفْريقُ بين حقِّ اللّه عَزَّوَجَلَّ، وحقِّ رسولِه ﷺ في قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور]؛ فَالطَّاعَةُ لِلَّهِ ولِرَسُولِهِ، وَالخَشْيَةُ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ لأنَّ اللّهَ عَزَّوَجَلَّ جعلَ هاتَيْنِ العبادتَيْن القَلْبيَّتَيْن مُخْتَصتَّيْن به فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: 44]، وقال أيضًا: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل]، وَقَال سبحانه: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة].

وفي هذا جاء قوْلُ نبيِّ اللّه نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقَوْمِه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح]؛ حيْثُ جَعَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الطَّاعَةَ له، بيْنَما جَعَلَ العِبادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّه عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ.[2].

ومن بَابَتِهِ أيضًا قوْلُ اللّه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة]؛ فجعَلَ الإيتَاءَ للّه عَزَّوَجَلَّ والرَّسول ﷺ؛ وسببُ ذِكْرِ الرَّسُولِ ﷺ في الإيتَاء هو أنَّه لا يُبَاحُ إلاَّ ما أبَاحَهُ الرَّسُولُ ﷺ؛ فليْسَ لأحَدٍ أنْ يأخُذَ كُلَّ ما تَيَسَّرَ له، إنْ لَمْ يَكُنْ مُبَاحًا في الشَّريعة.

فالمُرَادُ بالإيتَاءِ هُنَا هو الإيتاءُ الشَّرْعِيُّ ـ لا الكونيُّ ـ، وهو ما أبَاحَهُ اللّه سبحانه على لسان رسوله ﷺ، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر]؛ فالحَلالُ ما حلَّله الرَّسُولُ ﷺ، والحرَام ما حرَّمَه الرَّسُولُ ﷺ، والدِّينُ ما شرَعَهُ الرَّسُول ﷺ.

وجعل التَّحسُّب باللّه عَزَّوَجَلَّ وحْدَهُ، فقال: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾؛ ولَمْ يَقُلْ: ورسُولُه؛ لأنَّ اللّهَ وحدَه كافٍ عَبْدَه، كما قال اللّه تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال]؛ أيْ: حَسْبُكَ،

(2) انظر: «فتاوى ابن تيمية» (1/67 ـ 68)، و(3/273).

وحَسْبُ مَنِ اتَّبَعَكَ: اللّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ فهو وحْدَهُ كَافِيكُم جميعًا.

ثُمَّ دَعَاهُم إلى أنْ يَقُولُوا: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ فَذَكَرَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ يُؤْتِيهِم، وأنَّ ذلك مِنْ فَضْلِ اللّهِ وحْدَهُ، ولَمْ يَقُلْ: من فَضْلِهِ، وفَضْلِ رَسُولِه.

ثمُّ ذَكَرَ قوْلَهُم: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ ـ ولم يقُلْ: ورسُولُه ـ؛ فَجَعل الرَّغْبَةَ إلى اللّه وَحْدَهُ دُونَ ما سِوَاهُ، كَمَا أمَر بذلك سبحانه في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [سورة الشرح][3].

إذا تقرَّرَ هذا؛ فإنَّ أصْلَ الحُقُوقِ الَّتِي لا تنْبَغِي إلاَّ للّه عَزَّوَجَلَّ، أنْ يُعْبَدَ ولا يُشْرَكَ به شيءٌ، كما جاء بيانُ ذلك في حديث «الصَّحيحيْن» عنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللّهِ عَلَى العِبَادِ؟**»، قَالَ: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟**» قَالَ: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ**».

وهذا هو دِينُ اللّه عَزَّوَجَلَّ الَّذي أنْزَلَ به الكُتُب، وأرْسَلَ به الرُّسُل، إذْ قال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [سورة الزخرف]، وهذه هي حقيقةُ الكلمَةِ الطيِّبَة «لا إلَهَ إلاَّ اللّه»[4].

وعلَيْهِ؛ فَإنَّ العبَادَاتِ بأسْرِهَا ـ ما تعَلَّقَ مِنْهَا بالجَوَارِحِ أو بالقَلْبِ ـ هي مِنْ حُقُوقِ اللّهِ جلَّ وعلا الّتي لا تصلُحُ إلاَّ له سبحانه.

وَمن هذه العِبَادَاتِ: الصَّلاةُ بأَجْزَائِهَا مُجْتَمِعَةً ومتفرِّقَةً ـ فرْضًا كانتْ أو نَفْلاً ـ، إذْ هي عِبَادَةٌ لا تصلُحُ إلاَّ للّهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ؛ فالسُّجُودُ، وَالرُّكُوعُ، وَالتَّسْبيحُ، والدُّعاءُ، وَالقِرَاءَةُ، وَالقِيَامُ، كلُّها حقٌّ للّه تعالى وحده، لا يُشَارِكُه فيها أحدٌ.

وبخُصُوصِ السُّجود جاء حديثُ عَبْدِ اللَّهِ ابنِ أَبي أَوْفَى رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ رضي الله عنه مِنْ الشَّامِ، سَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: «**مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟**»، قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ، فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لأَسَاقِفَتِهِمْ، وَبَطَارِقَتِهِمْ، فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَلاَ تَفْعَلُوا؛ فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا...**» الحديث[5].

أمَّا الدُّعاءُ ـ سَوَاءٌ كَانَ دُعَاءَ العِبَادَةِ، أَوْ دُعَاءَ المَسْأَلَةِ وَالاسْتِعَانَةِ ـ فهو حقٌّ أكيدٌ للّه عَزَّوَجَلَّ

(3) انظر: «منهاج السنَّة» (2/446 ـ 447)، و«اقتضاء الصِّراط المستقيم» (2/365 ـ 366، ط: العقل)، كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(4) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (2/364 ـ 365).

(5) **صحيح**: رواه ابن ماجة، وابن حبان. انظر: «صحيح الترغيب» (1938).

لا يجوزُ صرفُه لغيْرِه البتَّة، مهْمَا علَتْ درَجَتُه، وسمَتْ منْزِلَتُهُ، سواءً كان نبيًّا مُرْسَلاً، أو ملَكًا مُقَرَّبًا؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠﴾ [سُورَةُ الجِنِّ]، ويقُولُ: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١٤﴾ [سُورَةُ غَافِر]، ويَقولُ أيضًا: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاء]، والآياتُ في هذا لا تُحْصَى كثْرَةً.

ومن هذه العبادَاتِ أيضًا: الذَّبْحُ - وهو أجَلُّ العبادات الماليَّةِ -؛ فقدْ قَرَن اللّهُ عَزَّوَجَلَّ بيْنَه وبيْنَ الصَّلاة - وهي أجَلُّ العباداتِ البدنيَّة -، وجعَلَ هاتَيْن الشَّعِيرَتَيْن العَظيمَتَيْن لا تنْبَغِيَان إلاَّ له - جلَّ وعلا -، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [سُورَةُ الأَنعَام]، وقال أيضًا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [سُورَةُ الكَوثَر]؛ أي: فصلِّ لربكَ، وانْحَرْ لربِّكَ وحْدَهُ لا لغَيْرِه.

وفي هذا جاء الحديث الَّذي يرويه الإمامُ مسلم في «صحيحه» (3753) عَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِى طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ**...» الحديث.

ومن الحقوق الَّتي لا تنبغي إلاَّ للّه عَزَّوَجَلَّ: الحَجُّ؛ فقد قال اللّه سبحانه: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [سُورَةُ البَقَرَة]؛ وعلى هذا فلا يجوز الحجُّ لقبْرِ نبيٍّ، ولا رجُلٍ صالحٍ، ولا لمَشْهَدٍ من المَشَاهِدِ، وكذلك أجْزَاءُ الحجِّ مثل الطَّوَافِ؛ لا يجوزُ الطَّوافُ إلاَّ بالكَعْبَة كمَا أمرَ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ في قوْلِهِ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [سُورَةُ الحَجّ]، ولا يُقبَّلُ على وجْهِ الأرْضِ شيءٌ عِبَادةً للّهِ إلاَّ الحَجَرَ الأسْوَدَ، ولا يُتَمَسَّحُ إلاَّ بهِ، وبالرُّكْنِ اليَمَانِيِّ، ولا يُسْتَلَمُ الرُّكْنَان الشَّاميَّان - وهُمَا مِنَ البَيْتِ - فَكيْفَ غَيْرُهُما؟![6].

ومن الحُقُوقِ الخَاصَّة باللّه عَزَّوَجَلَّ: الحلِفُ؛ فإنَّه تعْظيمٌ للمَحْلُوفِ به تَعْظِيمًا لا يَليقُ إلاَّ باللّه جلَّ وعلا؛ لهذا ثَبَتَ من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ بغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»[7]، وفي رواية أخرى عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كُلُّ يَمِينٍ يُحْلَفُ بهَا دُونَ اللَّهِ: شِرْكٌ**»[8].

مِنْ أجْلِ ذلك، قَالَ ابْنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ وَأَنَا صَادِقٌ»[9].

ومِنَ الحُقُوقِ الخَاصَّة باللّه تعالى: التَّوَكُّلُ،

(6) انظر «منهاج السنة» (2/448)، و«الاقتضاء» (2/370).

(7) **صحيح**: رواه الترمذي والحاكم، «الصحيحة» (5/69).

(8) **صحيح**: رواه الحاكم، «الصحيحة» (2042).

(9) **صحيح موقوفا**: رواه الطبراني وابن أبي شيبة. «صحيح الترغيب» (2953)، «الإرواء» (2562).

وهي عِبادَةٌ قلبيَّةٌ عظيمَةٌ لا تَنْبَغِي إلاَّ للّه عَزَّوَجَلَّ، كَمَا أمَرَ بذلك سبحانه، فقال ـ حكاية عن الرُّسل الكرام عليهم السلام ـ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة إبراهيم]، وقال أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة المائدة].

أمَّا الحقُّ الَّذي يختصُّ به الرَّسولُ ﷺ، فهو التَّعْزِيرُ والتَّوْقِيرُ، كما أمَرَ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ بذلك في قوْلِه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [سورة الفتح]، وفي قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف].

و«التَّعْزِيرُ اسْمٌ جَامِعٌ لنَصْرِه، وتَأْييدِهِ، ومَنْعِهِ مِنْ كُلِّ ما يُؤْذِيهِ.

والتَّوْقِيرُ اسْمٌ جامِعٌ لِكُلِّ ما فيه سكِينَةٌ، وطُمَأْنِينَةٌ من الإجْلال، والإكْرام، وأنْ يُعَامَلَ مِنَ التَّشْرِيفِ، والتَّكْرِيمِ، والتَّعْظِيم بِمَا يَصُونُهُ عَنْ كُلِّ ما يُخْرِجُه عَنْ حَدِّ الوَقَارِ»[10].

والتَّعْزِيرُ ـ أيْضًا ـ مِنْ حُقُوقِ الأَنْبِيَاءِ عامَّةً؛ فقد قَالَ اللّه عَزَّوَجَلَّ في خِطَابِهِ لِبَنِي إسْرَائِيلَ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [سورة المائدة].

أمَّا الحقُوقُ المُشْتَرَكَةُ بَيْنَ اللّهِ تعالى، وعبْدِهِ ورسُولِه مُحمَّدٍ ﷺ، فهي: الإيمَانُ، والتَّصْدِيقُ، والمحبَّةُ، والطَّاعَةُ، والإرْضَاءُ[11].

❖ أمَّا الإيمَانُ؛ فَلِقَوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة النساء]، وقوله أيضًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

(10) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في «الصَّارم المسلول على شاتم الرَّسول» (ص 427 ـ ط: المكتب الإسلامي).

(11) انظر: «منهاج السنة» (2/447).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٍ جَامِعٍ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ [سورة النور]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحجرات]، وقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحديد].

❖ أمَّا التَّصْديقُ؛ فلقوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأحزاب].

❖ أمَّا المَحبَّة؛ فلِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة التوبة]، ولِمَا جاء في حديث «الصَّحيحَيْن» عَنْ أَنَس بن مالك رضي الله عنه عَنْ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

❖ أمَّا الطَّاعةُ فلِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة النساء]، ولقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [سورة النساء]، وقوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب]، ولِقَوْلِه سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الفتح].

❖ أمَّا الإرضاءُ: فلِقَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة التوبة].

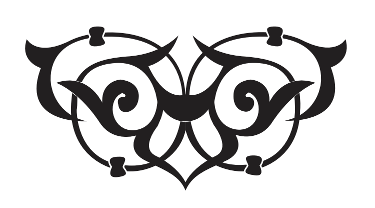
فهذه هي تَفاصِيلُ الحُقُوقِ الثابتَة للّه عَزَّوَجَلَّ، ولِرَسُولِه صلى الله عليه وسلم: حَقَّان مُخْتَصَّان، وحقٌّ مُشْتَرَكٌ، فلا ينْبَغي لِمُسْلِمٍ أنْ يَجْهَلَهَا، ولا أنْ تَلْتَبِسَ عليه؛ فَيَخْلِطَ بعْضَهَا ببَعْضٍ، ويجْعَلَ المُخْتَصَّ منها مُشتَرَكًا؛ فيقَعَ في الغُلُوِّ والإفْراطِ، أو في الإجْحَافِ والتَّقْصِير، وكِلاَ طَرَفَيْ القَصْدِ ذميمٌ، وخَيْرُ الأُمُورِ أوْسَاطُها.

وقد لَخَّصَ الإمَامُ الربَّاني، وشَيْخُ الإسلام

الثَّاني ابنُ قيِّم الجوزيَّة رحمه الله هذه المسألةَ تلْخيصًا شافِيًا، وذلك في قصيدتِه النّونية في السُّنَّة، والمَوْسومَةِ بـ«الكافية الشَّافية في الإنْتصَارِ للفِرْقَةِ النَّاجية»؛ فقال:

الرَّبُّ رَبٌّ والرَّسُولُ فَـعَـبْـدُهُ
حَـقًّا وليْـسَ لَـنَـا إلـهٌ ثَـاني
فَلِذَاكَ لَم نَعْبُدْهُ مِثْلَ عِبادَةِ الْـ
ـرَّحْمَن فِعْلَ المُشْرِكِ النَّصْرَانِي
كَلاَّ وَلَمْ نَغْلُ الغُلُوَّ كَمَا نَهَى
عَنْهُ الرَّسُولُ مَخَافَةَ الكُفْرَانِ
لِلَّـهِ حَقٌّ لا يَـكُونُ لِغَـيْـرِهِ
وَلِعَـبْـدِهِ حَـقٌّ هُـمَـا حَـقَّانِ
لا تَجْعَلُوا الحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا
مِنْ غَـيْـرِ تَـمْـيِـيـزٍ ولا فُـرْقَانِ
فَالْحَجُّ للرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِـهِ
وَكَذَا الصَّلاَةُ وَذَبْحُ ذَا القُرْبَانِ
وَكَذَا السُّجُودُ ونَذْرُنَا ويَمِينُنَا
وكَذَا مَتَابُ العَبْدِ مِنْ عِصْيَانِ
وكَذَا التَّوَكُّلُ والإنَابَةُ والتُّقَى
وكَذَا الرَّجَاءُ وَخَشْيَةُ الرَّحْمَنِ
وكَذَا العِبَادَةُ واسْتِعَانَتُنَا بِهِ
إيَّاكَ نَـعْـبُـدُ ذَانِ تَـوْحِـيـدَانِ
وعَلَيْهِـمَا قَامَ الوُجُودُ بِأَسْرِه
دُنْـيَـا وأُخْرَى حَبَّذَا الرُّكْنَانِ
وكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ والتَّكْبِيرُ والتَّـ
هْـلِـيـلُ حَـقُّ إِلَـهِـنَا الـدَّيَّـانِ
لَكِنَّمَا التَّعْزِيرُ والتَّوْقِيرُ حَـ
ـقٌّ لـلـرَّسُـولِ بِمُقْتَضَى القُرْآنِ
والحُبُّ والإيمَانُ والتَّصْدِيقُ لا
يَـخْـتَـصُّ بَلْ حَـقَّانِ مُـشْتَرِكَانِ
هَذِي تَـفَاصِيلُ الحُقُوقِ ثَلاثَةٌ
لا تَـجْـهَـلُـوهَا يا أُولِي الـعُـدْوَانِ

واللَّه أعلم بالصَّواب، وإليه المَرْجِعُ والمآب.





مناهج التَّأليف في القواعد الفقهيَّة

أ. د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

سلك مؤلِّفو هذا الفنِّ طُرُقًا مختلفةً، ومناهجَ متباينةً في ترتيبِ القواعدِ الفقهيَّة **شكلاً**، وفي تناول محتوياتها ومضامينها **موضوعًا**.

فقد رتَّب بعض مُؤلِّفي علم القواعد الفقهيَّة مُصنَّفاتهم على الأبواب الفقهيَّة والتزم آخرون التَّرتيب الهجائي، وراعى فريقٌ آخر في منهجه حجم المسائل ومقدار فروع القاعدة، بينما اختارت جماعة منهم سلوك التَّرقيم التَّسلسلي كما سيأتي بيانه على الوجه التَّالي:

منهج الفقهاء في ترتيب القواعد شكلا

لقد اعتمد بعضُ الفقهاء ـ من النَّاحية الشَّكليَّة ـ ترتيبَ القواعدِ الفقهيَّةِ حسبَ الأبوابِ الفقهيَّةِ ابتداءً من أبوابِ العباداتِ من: طهارةٍ وصلاةٍ وزكاةٍ... إلى آخرِ أبوابِ المعاملاتِ.

وقد تجلَّى منهجُ أبي عبد الله محمَّد ابن إبراهيم البَقُّوري المالكي (ت: 707 هـ) في مسايرةِ هذا التَّرتيبِ في مؤلَّفهِ «ترتيب فروق القرافي» مع تلخيصِ قواعدهِ ومسائلهِ، وانتهجه ـ أيضًا ـ أبو عبد الله المقرِّي المالكي (ت: 758 هـ) في «قواعده»، وبدر الدِّين البكري الشَّافعي (المتوفَّى في الرُّبع الأوَّل من القرن التَّاسع) في «الاعتناء في الفرق والاستثناء»، وأبو عبد الله محمَّد عظوم المالكي (المتوفَّى في القرن التَّاسع) مؤلِّفه «المسند المذهّب في ضبط قواعد المذْهَب»، والشَّيخ محمود حمزة الحسيني الحنفي (ت: 1305 هـ) في كتابه «الفرائد البهيَّة في

القواعد والفوائد الفقهيَّة».

والتزم بدر الدِّين الزَّركشي الشَّافعي (ت: 794هـ) في «المنثور في القواعد» التَّرتيب الهجائي على حروف المعجم، وكان له السَّبق في هذه الطَّريقة[1]، وعلى وفق هذا التَّرتيب الألفبائي ذَيَّل أبو سعيد الخادمي الحنفي (ت: 1176هـ) قواعده في «مجامع الحقائق»، والشَّيخ مصطفى الزَّرقا في «المدخل الفقهي العام» حيث أردفَ شرح قواعد المجلَّة بذكر إحدى وثلاثين قاعدة أخرى مرتَّبة على حروف المعجم بحَسْب أوائل كلماتها.

أمَّا مؤلِّفو «الأشباه والنَّظائر»: تاج الدِّين عبد الوهاب السُّبكي الشَّافعي (ت: 771 هـ)، وجلال الدِّين السُّيوطي الشَّافعي (ت: 911 هـ)، وزين الدِّين ابن إبراهيم بن نجيم الحنفي (ت: 970 هـ) فقد راعوا في منهجهم حجم المسائل ومقدار الفروع المندرجة تحت القاعدة من حيث العموم والشُّمول، آخذين في الاعتبار اتِّفاق العلماء واختلافهم فيها، فرتَّبوا الموضوعات بحَسَب سعة استيعاب القاعدة للفروع الفقهيَّة ومدى الاتِّفاق والاختلاف عليها ما عدا ابن نجيم الحنفي؛ فقد أسقط القواعد الواردة بصيغة الخلاف من «أشباهه».

هذا؛ واختار أبو الفرج عبد الرَّحمن بن رجب الحنبلي (ت: 795 هـ) في «قواعده»، وابن عبد الهادي المقدسي الحنبلي (ت: 909 هـ) في «مغني ذوي الأفهام»، وأبو العبَّاس أحمد بن يحيى الونشريسي المالكي (ت: 914 هـ) في «إيضاح المسالك» وعموم شرَّاح «مجلَّة الأحكام العدلية» ترقيمًا تسلسليًّا في جمعهم للقواعد ولم يلتزموا ترتيبًا مُعيَّنًا.

منهج الفقهاء في تناول محتويات القواعد موضوعا

ويمكن جمع مؤلَّفات القواعد الفقهيَّة وما تناولته من محتويات ومضامين ـ من النَّاحية الموضوعيَّة ـ بحَسَب الاتِّجاه الغالب عند مؤلِّفيها إلى ستِّ زُمر:

◻◻ الزُّمرة الأولى:

وهي مؤلَّفات تتضمَّن غالب القواعد الفقهيَّة بالمعنى الحقيقي المحدّد لكلمة قاعدة من حيث إنَّها: «حكمٌ أغلبيٌّ ينطبق على معظم جزئيَّاته لتعرف أحكامها منه»، لاحظ فيها مؤلِّفوها الفرق والدِّقة بين القواعد والضَّوابط من النَّاحية الاصطلاحيَّة وتمسَّكوا بالفرق حال التَّأليف، ويأتي في الطَّليعة ما ألَّفه القاضي حسين بن محمَّد المروزي الشَّافعي[2] (ت: 462 هـ) حيث ردَّ جميع

(1) ولعلَّ فائدة اختيار الزَّركشي لهذا التَّرتيب هي تجنُّب التَّكرار الَّذي يحصل من جرَّاء التَّرتيب الفقهي؛ لأنَّ شأن القاعدة احتواؤها على عِدَّة فروع من أبوابٍ شَتَّى، الأمر الَّذي يوجب إعادتها مع كلِّ بابٍ له صِلة بها، والتّكرار غير مستحسن، ولو اقتصر في ذكرها على بابٍ واحدٍ وأهملت بقيَّة الأبواب لاعترى ذلك نقصًا غير مرغوب فيه.

(2) هو أبو علي الحسين بن محمَّد بن أحمد المروزي، فقيه خراسان، المعروف بالقاضي، صنَّف في الفقه والأصول والخلاف، واشتهر بتعليقاته في الفقه، توفي سنة (462هـ). [انظر ترجمته في: «طبقات الشَّافعيَّة» لابن قاضي شهبة (1/244)، «وفيات الأعيان» لابن خلكان (1/400)، «شذرات الذَّهب» لابن العماد (3/310)].

مذهب الشَّافعي إلى قواعد محصورة في أربع وهي:

- اليقينُ لا يُزال بالشَّكِّ.
- المشقَّة تجلب التَّيسير.
- الضَّرر يُزال.
- العادة محكَّمة[3]، وقد أضاف من جاء بعده قاعدة: «الأمور بمقاصدها» إلى القواعد الكليَّة الكبرى.

ومن أشهر هذه الكتب وأكثرها انتشارًا وعنايةً وتداولاً كتابان:

الأوَّل: «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي الشَّافعي (ت: 911 هـ).

والثَّاني: لابن نجيم الحنفي (ت: 970 هـ) يحمل العنوان نفسه، وقد سلك مؤلِّفاهما نمط «الأشباه والنَّظائر» لتاج الدِّين السُّبكي (ت: 771هـ)، ويؤكِّده تصريح ابن نجيم بذلك حيث يقول: «إنَّ المشايخ الكرام قد ألَّفوا لنا ما بين مختَصَر ومطوَّل من متون وشروح وفتاوى، واجتهدوا في المذهب والفتوى، إلاَّ أنِّي لم أرَ لهم كتابًا يحكي كتابَ تاج الدِّين السُّبكي الشَّافعي مشتملاً على فنونٍ في الفقهِ، فألهمت أن أضعَ كتابًا على النَّمط السَّابق»[4]، ولا يبعد أن يكون ابن السُّبكي كالعلائي (ت: 761 هـ) قد اقتصَّ أثر صدر الدِّين ابن الوكيل (ت: 716 هـ) في التَّسمية والنَّسج على منواله، إذ سلك في المؤلَّف منهجًا مُعيَّنًا وأوضح ما يريده بالقواعد والضَّوابط والمدارك الفقهيَّة، فبدأ مؤلَّفَه بالقواعد الخمس الكبرى، وأعقبها بطائفة من القواعد العامَّة والقواعد الخاصَّة من مختلف الأبواب الفقهيَّة، ثمَّ تناول الأصول الكلاميَّة وما ينبني عليها من فروع فقهيَّة، فالمسائل الأصوليَّة وما يترتَّب عليها من جزئيَّات فقهيَّة، ثمَّ أردفها بكلمات نحويَّة وما يتخرَّج عليها من مسائل فقهيَّة ونحو ذلك ممَّا أفصح عنه المصنِّف في مقدّمة كتابه عن منهجه ومحتويات كتابه وخطَّته.

هذا، وكتاب «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي يشتمل على سبعة كتب بمعنى أبواب، ذكر القواعد الخمس الكبرى في الكتاب الأوَّل مؤصِّلاً لكلِّ قاعدةٍ مع الشَّرح بالأمثلة، وبيان ما يندرج تحتها من أبوابِ الفقهِ المختلفةِ وما يتفرَّع على كلٍّ منها من قواعد فرعيَّة.

وذكر في الكتاب الثَّاني قواعد كليَّة يتخرَّج عليها ما لا ينحصر من الصُّور الجزئيَّة، وهي أربعون قاعدة دون القواعد الخمس الكبرى في عمومها وشمولها، وذكر في الكتاب الثَّالث: عشرين قاعدةً مختلفًا فيها، أمَّا بقيَّة الكتب فتدور على أحكام يكثر دورها ويقبح بالفقيه جهلها، وفي نظائر الأبواب وما افترقت فيه الأبواب المتشابهة كالفرق بين الغسل والوضوء، والحيض والنِّفاس، واللَّمس والمسِّ، والأذان والإقامة، والإجارة والجعالة، ثمَّ في نظائر شتَّى نثر بين موضوعاتها قواعد مختلفة في مسائل أصوليَّة وفقهيَّة، كمسألة النَّسخ، هل هو رفع أو بيان؟ وهل يجوز إحداث قول ثالث في المسألة؟.. ومجموع الكتاب يتضمَّن

(3) «الأشباه والنَّظائر» لابن السُّبكي (12/1)، «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي (7).

(4) «الأشباه والنَّظائر» لابن نُجيم (10) ـ بتصرُّف.

ثلاثين ومائة (130) قاعدة كليَّة وفرعيَّة.

أمَّا كتاب ابن نجيم الحنفي (ت: 970هـ) فقد استفاد من تاج الدِّين السُّبُكي (ت: 771هـ) عن طريق الإمام السُّيوطي (ت: 911 هـ) على ما صرَّح به في عدَّة أماكن من كتابه[5]، ولذلك يسير في أغلب الأحيان على غرار «الأشباه» للسُّيوطي، فقد رتَّبه على سبعة فنون تناول في الفنِّ الأوَّل نوعين من القواعد.

تمثَّل **النَّوع الأوَّل:** في القواعد الكبرى، وزاد قاعدة سادسة على «أشباه» السُّيوطي، وهي قاعدة: «لا ثواب إلاَّ بنيَّة»[6]، ثمَّ قام ببيان مع كلِّ قاعدةٍ ما يندرج تحتها من قواعد فرعيَّة، وما يدخل في كلِّ قاعدةٍ من الأبواب الفقهيَّة مع إيراد الأمثلة والنَّظائر.

أمَّا النَّوع الثَّاني: فخصَّصه المصنِّف في قواعد كليَّة يتخرَّج عليها ما لا ينحصر من الصُّور الجزئيَّة الَّتي لا تخرج عمَّا أورده الإمام السُّيوطي.

وفي الفنِّ الثَّاني تناول الفوائد في ستَّة وثلاثين كتابًا من كتاب الطَّهارة إلى غاية كتاب الفرائض[7] تخلَّلتها الضَّوابط الفقهيَّة المذهبيَّة بصورة جليَّةٍ واضحةٍ.

أمَّا الفنُّ الثَّالث: فجعله في الجمع والفرق من «الأشباه والنظائر»[8]، وجعل الفنَّ الرَّابع في الألغاز في ثلاثة وثلاثين كتابًا من كتاب الطَّهارة إلى الفرائض[9] على شكل أسئلةٍ فقهيَّة واردة للإعجاز والتَّعميةِ على المسؤول مع إرداف أجوبتها.

والفنُّ الخامس في الحيل، والسَّادس في الفروق، والسَّابع في الحكايات والمراسلات، ويجدر التَّنبيه إلى أنَّ الإمام ابن نُجيم أسقط من «أشباهه» القواعد الخلافيَّة، أي: تلك الواردة بصيغة الخلاف، في حين أثبت هذا القسم كلٌّ من السُّبكي والسُّيوطي.

وقد حَظِيَ «الأشباه والنَّظائر» لابن نُجيم الحنفي (ت: 970هـ) باهتمامٍ كبيرٍ من العلماء شرحًا وترتيبًا وحاشيةً وتعليقًا بلغ أزيد من ثلاثين مؤلفًا[10].

ويدخل ضمن هذه الزُّمرة كتب القواعد التَّالية:

■ «**مجامع الحقائق**» لأبي سعيد الخادمي (ت: 1176هـ) حيث خَتَمَ مؤلِّفه الأصوليَّ بنيف وخمسين ومائة (150) قاعدة فقهيَّة بالمعنى المحدَّد اصطلاحا لكلمة «قاعدة» في الجملة.

■ «**مجلة الأحكام العدلية**» بشروحها المتضمِّنة لتسع وتسعين قاعدة فقهيَّة ذات صياغة شرعيَّة فنيَّة بالمعنى الاصطلاحي المحدّد لكلمة قاعدة، غير أنَّه حصل في بعضٍ منها شيء من التَّرادف أو التَّداخل مع غيرها، الأمر الَّذي استوجب تصنيفها إلى صنفين:

(5) انظر: الصَّفحات التَّالية: (10، 163، 164، 173).

(6) انظر: (ص14).

(7) انظر من صفحة: (192، 355).

(8) انظر صفحة: (360، 365).

(9) انظر صفحة: (466، 476).

(10) انظر: «القواعد الفقهيَّة» للنّدوي (139، 434).

الصِّنف الأوَّل: القواعد المستقلَّة: وهي قواعد أساسيَّة يعدُّ كُلُّ منها أصلاً مُستقلاً عن غيره، غير متفرِّع عن قاعدة أعمّ منه.

الصِّنف الثَّاني: القواعد غير المستقلَّة: وهي قواعد متفرِّعة من تلك القواعد الأساسيَّة[11].

هذا؛ وقواعد المجلَّة مأخوذة ـ بشكل عامٍّ ـ من كتب ظاهر الرِّواية للمذهب الحنفي، وعند تعدُّد الأقوال عند الإمام أبي حنيفة والصَّاحبين اختارت المجلَّة الرَّأي الموافق لحاجيات العصر ومتطلَّباته وما تقتضيه المصلحة العامَّة[12].

ونظرًا لأهميَّة مجلَّة الأحكام العدليَّة؛ فقد تولَّى شرحها جماعة نذكر بعض مؤلَّفاتهم فيما يلي:

1 ـ **«مرآة مجلَّة الأحكام العدليَّة»** للمفتي مسعود أفندي، وهو شرح بالعربيَّة على المتن التُّركي، يتضمَّن شرحًا وجيزًا لأحكام المجلَّة مع بيان المآخذ والمستثنيات.

2 ـ **«شرح مجلَّة الأحكام العدليَّة»** لسليم رستم باز اللُّبناني (ت: 1328 هـ)، وهو شرح مُعَرًّى عن الأدلة الشَّرعيَّة.

3 ـ **«مرآة المجلَّة»** للسيِّد يوسف آصاف المحامي (ت: 1357 هـ).

4 ـ **«درر الحكام شرح مجلَّة الأحكام»** للسَّيِّد علي حيدر أفندي، تعريب: المحامي فهمي الحسيني.

5 ـ **«شرح المجلَّة»** للشَّيخ خالد الأتاسي (ت: 1326هـ)، وله استدراكات قيِّمة على من سبقوه كسليم الباز وعلي حيدر أفندي.

6 ـ **«شرح المجلَّة»** للسيِّد منير القاضي (1389هـ)، يقع في خمسة أجزاء مبوَّبة بحسب المواضيع لا بحسب المواد.

7 ـ **«شرح القواعد الفقهيَّة»** للشَّيخ أحمد الزَّرقا (ت: 1357 هـ)، وهو شرح موجز لقواعد المجلَّة، قام بنشره ولده الأستاذ مصطفى الزَّرقا، والتزم فيه المصنِّف المذهب الحنفي في تخريجه وتمثيله.

■ **«المدخل الفقهي العام»** للأستاذ مصطفى ابن أحمد الزّرقا (ت: 1420هـ)، الَّذي أردف قواعد المجلَّة التِّسع والتِّسعين بإحدى وثلاثين قاعدة، جمعها من مناسباتها المختلفة كالكتب الفقهيَّة، وبعضها عبارات مأثورة عن بعض كبار أئمَّة الفقهاء خليقة بالتَّقعيد، وقد ذكرها سردًا مرتَّبةً على حروف المعجم دون شرح إلاَّ بعض التَّعليقات اليسيرة أحيانًا مع الإحالة على مكان وجودها[13].

■ **«الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكليَّة»** للأستاذ محمَّد صدقي بن أحمد البورنو الغزي، الَّذي شرح فيه أكثر من مائة قاعدة شرحًا موجزًا، ذاكرًا أصل كُلِّ قاعدةٍ ودليلها ومعناها اللُّغوي

(11) «المدخل الفقهي» للزّرقا (961/2).

(12) انظر: «فلسفة التَّشريع» للمحمصاني (95).

(13) «المدخل الفقهي» للزرقا (1082/2 ـ 1089).

والاصطلاحي، وما يندرج تحتها من قواعد فرعيَّة، وما يتفرَّع عنها من بعض المسائل الفقهيَّة، مع بيان اختلاف المذاهب إن وُجد، ودليل كلِّ مذهب ما أمكن، وثمرته، وبعض ما يستثنى من كلِّ قاعدة، وتوجيه الاستثناءات ومجال التَّعارض والتَّرجيح في ذلك.

□□ الزُّمرة الثَّانية:

وتتمثَّل في كتب تحمل اسم القواعد، غير أنَّها في حقيقة أمرها عبارة عن تقسيمات وضوابط أساسيَّة فقهيَّة مذهبيَّة أو مجموعة فوائد فرعيَّة لم تظهر في صياغة القواعد بالمعنى السَّالف البيان إلاَّ في مواضع تجمع فروعًا من أبواب شتّى، منها على سبيل المثال:

■ **«تقرير القواعد وتحرير الفوائد»** لأبي الفرج عبد الرَّحمن بن رجب الحنبلي (ت: 795هـ) المشتهر بـ «القواعد» لابن رجب، فقد احتوى كتابه على ستِّين ومائة (160) قاعدة ، ثمَّ ألحق بها إحدى وعشرين (21) فائدة، ويظهر منهجه في تقرير القاعدة بوضع موضوع فقهي تحتها، ثمَّ يتعرَّض له بإسهاب في الشَّرح، ويذكر جملةً من الفروع والأمثلة الفقهيَّة الَّتي يراها تندرج تحتها، ولا تتعدَّى كُلُّ قواعده إلى مختلف المذاهب، بل هي خاصَّة بالمذهب الحنبلي؛ لأنَّ غرضه من ذلك هو ضبط أصول المذهب على ما صرَّح به المصنِّف في مقدّمة كتابه حيث يقول: «فهذه قواعد مهمَّة، وفوائد جمَّة، تَضبط للفقيه أصول المذهب، وتُطلِعه من مآخذ الفقه على ما كان عنه قد تغيب، وتنظِّم له منثور المسائل في سلك واحد، وتُقيِّد له الشَّوارد، وتقرِّب عليه كلَّ متباعد»[14].

وقد أدخل ابن رجب في قواعده موضوعات فقهيَّة دمجها مع القواعد؛ كأحكام القبض في العقود، وأنواع الملك، وأقسام الأيدي المستولية على مال الغير[15].

■ **«إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك»** لأبي العبَّاس أحمد بن يحيى الوَنْشَرِيسِي المالكي (ت: 914 هـ) فقد اشتمل كتابه على ثماني عشرة ومائة (118) قاعدة، غالبها في الواقع ضوابط فقهيَّة تخدم المذهب المالكي، صِيغت صياغةً دقيقةً، كُلّها من قواعد الخلاف مصُوغة بطريق الاستفهام، مثل: «الموجود حكمًا هل هو كالموجود حقيقة؟»[16]، «الشّفعة هل هي بيع أو استحقاق؟»[17].

■ **«الكلِّيَّات في الفقه»** لمحمَّد بن عبد الله الشَّهير بالمكناسي المالكي (ت: 917 هـ) الَّذي جمع الضَّوابط الفقهيَّة فيه واقتص أثر أبي عبد الله المقَّرِي (ت: 758هـ) حيث إنَّ له كتابًا يحمل العنوان نفسه[18].

■ **«الفوائد الزينيَّة في فقه الحنفيَّة»** للإمام زين الدِّين بن إبراهيم بن نجيم الحنفي (ت:

(14) «قواعد ابن رجب» (3).

(15) المصدر السَّابق (71، 195، 206).

(16) «إيضاح المسالك» للونشريسي (332).

(17) المرجع السَّابق (383).

(18) وكليَّات المقَّرِي تمثّل جزءًا من الضَّوابط الفقهيَّة الموجودة ضمن كتابه الموسوم بـ: «عمل من طبَّ لمن حبّ»، توجد نسخة خطيَّة منه بالخزانة العامَّة بالرِّباط، رقم (2687/م).

970 هـ) اشتمل الكتاب على خمسمائة ضابط بصورة مستقلّة، وإن تخلّلها تارة قواعد فقهيَّة بالمعنى الاصطلاحي[19].

■ **«الفرائد البهيَّة في القواعد والفوائد الفقهيَّة»** للشَّيخ محمود حمزة مفتي دمشق (ت: 1305هـ) والكتاب خليط من القواعد والضَّوابط الفقهيَّة يغلب عليه عدد وافر من الفروع الفقهيَّة، مستقلَّةً مدرجةً تحت عنوان «فائدة»، بل يلاحظ في بعض المواضع خلوّها من ذكر أية قاعدة، كما هو واضح في باب «مسائل الإجارة»، و«مسائل اللُّقطة»، وقد أومأ المصنِّف إلى هذا المعنى بقوله: «..فوجب تقريب الطَّريق للوصول إلى أجوبة النَّوازل برعاية الضَّوابط والقواعد، وتسهيل المسالك على السَّالك، بتحرير الفوائد وحذف الزَّوائد»[20]، وعلى هذا النَّمط تناول معظم الأبواب الفقهيَّة.

□□ الزُّمرة الثَّالثة:

كتب ليست من القواعد الفقهيَّة الخالصة، وإنَّما دمجت مع القواعد الأصوليَّة أو مع موضوعات فقهيَّة أو عقائديَّة، ويأتي في طليعتها المصنَّفات الأصوليَّة الَّتي أدرجت معها جملة من القواعد الفقهيَّة:

■ **«تأسيس النَّظر»** للقاضي أبي زيد الدّبوسي (ت: 430 هـ) ومعظم قواعده مذهبيَّة، ولم يصرِّح بها أئمَّة المذاهب، وإنَّما صاغها الفقهاء بناءً على فروع المذاهب، وقد أورد فيه مبحث الاحتجاج بمذهب الصَّحابي ومبحث دلالة الخاصِّ والعامِّ، وغيرها من المباحث الأصوليَّة الَّتي وقع فيها الاختلاف بين علماء الحنفيَّة الأوائل، ثمَّ بينهم وبين مالك والشَّافعي.

■ **«تخريج الفروع على الأصول»**[21] لشهاب الدِّين محمود بن أحمد الزّنجاني (ت: 656 هـ)، الَّذي بيَّن فيه علاقة الفروع الفقهيَّة بأصولها وضوابطها من القواعد، ويذكر القاعدة الأصوليَّة والضَّابط الفقهي، ثمَّ يأتي بالخلاف فيه، ويفرِّع المسائل على مَذْهَبي الشَّافعي وأبي حنيفة، مع بيان الأصل الَّذي تردُّ إليه كلُّ مسألة خلافيَّة فيهما، وقد أومأ المصنِّف إلى ذلك بقوله: «فبدأت بالمسألة الأصوليَّة الَّتي تردُّ إليها الفروع في كلِّ قاعدة وضمَّنتها ذكر الحجَّة الأصوليَّة من الجانبين، ثمَّ رددتُ الفروع النَّاشئة منها إليها، فتحرَّر الكتاب مع صغر حجمه حاويًا لقواعد الأصول، جامعًا لقوانين الفروع»[22].

■ **«أنوار البروق في أنواء الفروق»** للإمام شهاب الدِّين أحمد بن إدريس القرافي المالكي (ت: 684 هـ)، حيث أدخل في مؤلَّفه مباحثَ فقهيَّة وعقائديَّة كما سيأتي، فأورد مجموعة

(19) راجع مقدِّمة «الأشباه والنَّظائر» لابن نُجيم: (10)، وقد أضاف المصنِّف إلى كتابه جملةً من الضَّوابط والاستثناءات، ونقَّحه ثمَّ وضعه في الفنِّ الثَّاني من أشباهه.

(20) «الفرائد البهيَّة» للحسيني (11).

(21) طبع بتحقيق وتعليق: الدُّكتور محمَّد أديب صالح. مؤسَّسة الرِّسالة.

(22) «التَّخريج» للزّنجاني (35).

كثيرة من القواعد الأصوليَّة كقاعدة «الواجب المخير»[23]، وقاعدة «اقتضاء النَّهي الفساد»[24]، وقاعدة «الشَّرط والمانع»[25] وغيرها من القواعد.

■ **«التَّمهيد في تخريج الأصول على الفروع»** لجمال الدِّين عبد الرَّحيم بن الحسن الإسنوي الشَّافعي (ت: 772 هـ)، وهو كتاب في علم أصول الفقه مشحون بالفروع الجزئيَّة، اقتصر المؤلِّف فيه على بيان القواعد الأصوليَّة عند الجمهور أو بالأحرى عند الشَّافعيَّة مع بعض الإشارات إلى المذهب الحنفي، والمتتبِّع لمعظم مسائله الفقهيَّة يجدها مُرتَّبة على القاعدة الأصوليَّة تدور جزئيَّاتها على الطَّلاق وألفاظه، الأمر الَّذي لم يجلّ فيه أثر الأصول بصورة واضحة على أبواب الفقه الواسع[26] هذا، ومن بين القواعد الفقهيَّة الَّتي نثرها الإسنوي في هذا الكتاب، قاعدة: «إعمال الكلام أولى من إهماله»[27]، وقاعدة: «التَّأسيس خير من التَّوكيد»[28]، وقواعد أخرى.

- أمَّا المصنَّفات الَّتي أدخل ضمنها موضوعات فقهيَّة أو عقائديَّة؛ فمنها:

(23) «الفروق» للقرافي (8/2).

(24) المصدر نفسه (82/2).

(25) المصدر نفسه (110/1).

(26) انظر مقارنة «مفتاح الوصول» للشَّريف التِّلمساني بغيره من كتب تخريج الفروع على الأصول للزَّنجاني والإسنوي في مؤلَّفنا ضمن دراسة لشخصيَّة أبي عبد الله الشَّريف التِّلمساني (ص206 ـ 207).

(27) «التَّمهيد» للإسنوي (151).

(28) المصدر السَّابق (161).

■ **«القواعد النّورانية الفقهيَّة»** لشيخ الإسلام تقيِّ الدِّين أبي العبَّاس أحمد بن تيمية (ت: 728 هـ)، حيث رتَّب كتابه حَسْب التَّرتيب المعهود في الموضوعات الفقهيَّة، وذكر في كُلِّ موضوع منها القواعدَ والضَّوابط الَّتي تحكمها، واختلافَ مذاهب الفقهاء، مع الاستدلال لكلِّ مذهبٍ وما يتفرَّع عن ذلك من مسائل فقهيَّة، يفيض في ذكرها أحيانًا، كما يبيِّن القواعد في العديد من المواطن بصورة غير مباشرة عند مناسبات مختلفة.

فالحاصل أنَّ الطَّابع العامَّ للكتاب يظهر في تعرُّض المصنِّف للمسائل الخلافيَّة من عبادات ومعاملات بالبحث الموسَّع مقرونًا بالأدلة والمناقشة، وإن تخلَّله بعض القواعد الفقهيَّة المهمَّة إلاَّ أنَّه لا يتراءى فيه النَّمط المألوف في تقرير القواعد، فهو بالكتب الفقهيَّة أشبه، وقد احتوى الكتاب على طائفة من القواعد والضَّوابط والشُّروط الَّتي لا يسمَّى أكثرها قواعد، وممَّا أَوْمَأَ إليه المصنِّف[29]:

- «إذا تعذَّر جمع الواجبين قدّم أرجحهما، وسقط الآخر بالوجه الشَّرعي»[30].

- «إنَّ المشكوك في وجوبه لا يجب فعله، ولا يستحبُّ تركه، بل يستحبُّ فعله احتياطًا»[31].

- «كلُّ ما كان حرامًا بدون الشَّرطِ، فالشَّرط لا يبيحه؛ كالرِّبا، والوطء في ملك الغير، وكثبوت الولاء لغير المعتق، وأمَّا ما كان مباحًا

(29) «القواعد النّورانيَّة» لابن تيمية (182).

(30) المصدر السَّابق (89).

(31) المصدر السَّابق (93).



بدون الشَّرط، فالشَّرط يوجبه كالزِّيادة في المهر والثَّمن والرَّهن، وتأخير الاستيفاء»[32].

هذا، وجدير بالملاحظة والتَّنبيه أنَّ الكتاب وإن سمّى بعضها بالقواعد والأصول؛ فإنَّما يعني بالأصول: العبادات الشَّرعيَّة المعروفة كالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام والحجِّ، لكلِّ واحدٍ منها أصل، أمَّا القواعد فأطلقت على خمسة وهي:

القاعدة الأولى: في صيغ العقود.

والثَّانية: في المعاقد حلالها وحرامها.

والثَّالثة: في العقود والشُّروط فيها.

والرَّابعة: في الشَّرط المتقدِّم على العقد.

والخامسة: في الأيمان والنُّذور.

■ **«المنثور في القواعد»** للإمام بدر الدِّين محمَّد بن بهادر بن عبد الله الزَّركشي الشَّافعي (ت: 794 هـ)، فقد جمع فيه المؤلِّف القواعد والضَّوابط الفقهيَّة المقرّرة، مع تحرير فروع المذهب الشَّافعي، كما أدخل فيه موضوعات فقهيَّة هامَّة تحت عنوان قاعدة، وأبوابًا فقهيَّة مستقلَّةً مع البيان والتَّمحيص وذكر الضَّوابط لها، والتَّنبيهات عليها كأحكام الفسخ وأحكام النِّيَّة وجلسات الصَّلاة وأحكام الدَّين[33].

◘◘ الزُّمرة الرَّابعة:

كتب لم تتضمَّن قواعد فقهيَّة بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، بل يهدف مؤلِّفوها إلى الجمع بين قاعدتين متشابهتين، مع بيان الفرق الواقع بينهما؛ ليتمَّ تفريع المسائل عليهما، فمن أجلِّ المصنَّفات بهذا المعنى وأغزرها مادَّةً ما يأتي:

■ **«أنوار البروق في أنواء الفروق»** للإمام شهاب الدِّين القرافي (ت: 684 هـ) المشتهر بـ: «فروق القرافي»، ضمَّن مؤلِّفه خمسمائة وثمانية وأربعين قاعدة، مع إيضاح كلِّ قاعدة بما يناسبها من الفروع[34]، بعدما كانت مفرَّقة في أبواب الفقه من كتابه «الذَّخيرة» وجمعها في مؤلَّفٍ مستقلٍّ، وزاد في تلخيصها وبيانها والكشف عن أسرارها وحِكَمها، وأضاف إليها قواعدَ ليست في «الذَّخيرة»، وتمثّل منهجه في استنباط الفرق بين فرعين؛ ليستنتج منه قاعدة أخرى، واستنباط الفرق بين قاعدتين ليتمَّ تحقيقهما، حيث إنَّ تحقيقهما بالسُّؤال عن الفرق بينهما أولى من تحقيقهما بغير ذلك[35]، غير أنَّ هذه القواعد تبقى في الغالب الأعمِّ في معنى الأحكام الأساسيَّة في كلِّ موضوعين متشابهين ليتجلى الفرقُ بينهما، مثل الفرق بين قاعدة: «الإنشاء والخبر»، وقاعدة: «المعاني الفعليَّة والحكميَّة»، والفرق بين «المشقَّة المسقطة للعبادة والَّتي لا تسقطها»[36]، وغيرها ممَّا لا يظهر فيه المعنى المحدَّد في الاصطلاح؛ لأنَّ مفهوم «القاعدة» أوسع عنده، فهو يطلقها على ضوابط وأحكام أساسيَّة أيضًا.

(32) المصدر السَّابق (199).

(33) «المنثور» للزَّركشي (3/41) وما بعدها، (3/284) وما بعدها، (2/10 ـ 158).

(34) «الفروق» للقرافي (1/4).

(35) المصدر السَّابق (1/3).

(36) المصدر السَّابق (1/23 ـ 131 ـ 199).

أمَّا القواعد الفقهيَّة بالمعنى الاصطلاحي؛ فهي متناثرة في فصول مختلفة من الكتاب، تظهر عند تعليل بعض الأحكام أو مناقشة توجيه الآراء الفقهيَّة.

هذا؛ وقد أدرج المؤلِّف في كتابه كثيرًا من القواعد الأصوليَّة، كما احتوى مؤلَّفه على بعض المباحث الفقهيَّة والعقائديَّة دمجها تحت عنوان: «القواعد»، مبرزًا الفرق بينهما، كالفرق بين قاعدة: «خيار المجلس» وقاعدة: «خيار الشَّرط»، والفرق بين قاعدة: «القرض»، وقاعدة: «البيع»، والفرق بين قاعدة: «الصُّلح»، وغيره من العقود، والفرق بين قاعدة: «الغيبة والنَّميمة»، وقاعدة: «الحسد والغبطة»، وقاعدة: «الطِّيرة والفأل»[37].

■ **«الاعتناء في الفرق والاستثناء»** لبدر الدِّين محمَّد بن أبي بكر البكري الشَّافعي (المتوفَّى في الرُّبع الأوَّل من القرن التَّاسع الهجري)، وقد ذكر المؤلِّف في طليعة الكتاب سبب تصنيفه ومنهجه فيه حيث يقول: «..فشرعت في جمع هذا الكتاب مختصرًا من كلام ذوي الألباب، قليل حجمه، كثير فوائده، وقد أوضحته بحيث لا يشكل على منتهي ولا يعجم على مبتدي، لكي يرغب فيه طالب ذكيٌّ، يفهم ما لخَّصته لطالبه، وقد جعلته قواعد أصليَّة ستَّمائة، جمعتها كليَّة، وأخرجت من كلِّ قاعدة فوائدَ جليلة تعكس على أصلها بقدر فهمي لها»[38]، فكان يذكر القواعد مرتَّبة على الأبواب الفقهيَّة، ويستثني من كلِّ قاعدة مسائل بعددها، ثمَّ يذكر الفرق إنْ وجد.

والكتاب قَيِّمٌ، مليءٌ بعلم منظَّم ومنسَّق، حافل بالقواعد الفقهيَّة الَّتي يعدُّ جلّها ـ عند الإمعان ـ ضوابط فقهيَّة، وإن لم يغب عن بعضها المعنى الجامع للقواعد الفقهيَّة؛ لأنَّ غرض المصنِّف من وراء تسمية الكتاب بهذا العنوان؛ هو التَّنبيه إلى التَّحرير الدَّقيق للضَّوابط الفقهيَّة الَّتي وضعها، وإبراز الفروق الَّتي تختلف بها الفروع وتتميَّز بها المسائل وبيان المستثنيات الخارجة عن تلك الضَّوابط.

هذا؛ وتصبُّ داخل هذه الزُّمرة مجموعةُ كتبِ الفروق الأخرى مرتَّبة بحسب وفيات أصحابها منها:

■ **«الفروق في فروع الشَّافعيَّة»** لأبي عبد الله محمَّد بن علي الحكيم التِّرمذي الشَّافعي (ت: 255هـ).

■ **«الفروق»** لأبي العبَّاس أحمد بن عمر ابن سريج الشَّافعي (ت: 306 هـ).

■ **«الفروق»** لأبي الفضل محمَّد بن صالح المعروف بالكرابيسي الحنفي (ت: 322 هـ).

■ **«فروق مسائل مشتبهة من المذهب»** لأبي القاسم عبد الرَّحمن بن علي الكناني، المشهور بابن الكاتب (ت: 408 هـ).

■ **«الفروق في مسائل الفقه»** للقاضي عبد الوهَّاب بن علي بن نصر المالكي (ت: 422 هـ).

■ **«الفروق»** لأبي محمَّد عبد الله بن يوسف

(37) المصدر السَّابق: (3/269 ـ 4/2، 209، 224، 240).

(38) «الاعتناء» للبكري (1/33 ـ 34).



ابن حيويه الجويني الشَّافعي (ت: 438 هـ).

■ **«الأجناس والفروق»** لأبي العباس أحمد ابن محمَّد النَّاطفي الطَّبري الحنفي (ت: 446 هـ).

■ **«النُّكت والفروق لمسائل المدوَّنة»** لأبي محمَّد عبد الحقِّ بن محمَّد بن هارون الصِّقلي المالكي (ت: 466 هـ).

■ **«مطالع الدَّقائق في تحرير الجوامع والفوارق»** لأبي محمَّد عبد الرَّحيم بن الحسن الإسنوي الشَّافعي (ت: 772 هـ).

■ **«الفروق»** لأبي عبد الله محمَّد بن يوسف العبدري المواق الغرناطي المالكي (897 هـ).

■ **«عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق»** لأبي العبَّاس أحمد بن يحيى الوَنْشَريسي (ت: 914 هـ).

□□ الزُّمرة الخامسة:

كتبٌ ليست في القواعد الفقهيَّة، وإنَّما أضيفت لعلم القواعد الفقهيَّة تسميةً؛ إمَّا لاحتوائها على قواعدَ قليلةٍ منتشرةٍ في ثنايا كتبهم لا تخرج عن القاعدة الأساسيَّة، وإمَّا لكونها تحمل اسم القواعد أو القوانين ولا صلة لها بهذا الفنِّ.

ومثال النَّوع الأوَّل كتاب:

■ **«قواعد الأحكام في مصالح الأنام»** لعزِّ الدِّين بن عبد السَّلام السُّلمي الشَّافعي (ت: 660 هـ)، وهو كتاب يشتمل على فصول فقهيَّة تندرج تحتها أحكام مفصّلة، استقلَّ في موضوعه عن غيره من الفقهاء المؤلِّفين في هذا الفنِّ، والكتاب لا نظير له في بابه، قسمه إلى موضوعات فقهيَّة وأخلاقيَّة وعقدية، يربط كلّ فروعه رباط وثيق الصِّلة بينها جميعًا، ومردّه إلى القاعدة الشَّرعيَّة الأساسيَّة: «جلب المصالح ودرء المفاسد»، أمَّا القواعد الفقهيَّة المتناثرة في مواضع كثيرة من الكتاب؛ فمرجعها إلى هذه القاعدة العامَّة.

والجدير بالملاحظة أنَّ المؤلِّف لم يكن غرضه من وضع قواعده الفقهيَّة: هو جمعها والتَّنسيق بينها على النَّمط الاصطلاحي المعهود، وإنَّما قصده من ذلك: هو ما أفصح عنه بقوله: «الغرض بوضع هذا الكتاب بيان مصالح الطَّاعات والمعاملات وسائر التَّصرُّفات لسعي العباد في تحصيلها وبيان مقاصد المخالفات لسعي العباد في درئها، وبيان مصالح العبادات ليكون العباد على خبر منها، وبيان ما يقدَّم من بعض المصالح على بعض، وما يؤخَّر من بعض المفاسد على بعض، وما يدخل تحت اكتساب العبيد دون ما لا قدرة لهم عليه ولا سبيل لهم إليه»[39]، والمؤلِّف وضع القواعد المصلحيَّة في مباحث وفصول مختلفة وعالجها معالجةً قويمةً، وكشف من خلالها على أسرار التَّشريع وحِكَمه؛ لذلك فالكتاب حريٌّ أن يُدرج ضمن مصنَّفات مقاصد الشَّريعة لا مع كتب القواعد الفقهيَّة.

مثال النَّوع الثَّاني كتاب:

(39) «قواعد الأحكام» لابن عبد السَّلام (9).

■ **«القوانين الفقهيَّة في تلخيص مذهب المالكيَّة»**[40] للإمام أبي القاسم محمَّد بن أحمد ابن جُزَي[41] الغرناطي المالكي (ت: 741 هـ)، فإنَّ عنوان الكتاب وتسميته بالقوانين؛ يوحي بوجود علاقة وطيدة بعلم قواعد الفقه، ولكنَّه عند التَّحقيق لا صِلة له البتَّة في مضمونه بالقواعد الفقهيَّة، إذ لا يخرج عن كونه كتابًا فقهيًّا يتضمَّن تلخيصًا لمذهب مالك، والإشارة إلى مذهب أبي حنيفة والشَّافعي وأحمد ـ رحمهم اللَّه تعالى[42] ـ، كما يذكر المسائل والأقوال غير مقرونة بأدلَّتها مبتدئًا بمذهب مالك ثمَّ يتبعه بالمذاهب الأخرى، وافتتح كتابه بعشرة أبواب في العقائد وأعقبه بنفس التَّقسيم العددي للأبواب في المسائل الفقهيَّة وذيَّله ـ أخيرًا ـ بكتاب جامع في السِّيرة وتاريخ الخلفاء والأخلاق.

□□ **الزُّمرة السَّادسة:**

يتمثَّل منهج التَّأليف في هذا الجانب بتخصيص قاعدة معيَّنة بالدِّراسة والبحث من بين القواعد الكبرى أو من عموم القواعد العامَّة الأخرى، ونذكر منها:

■ **«الأمنية في إدراك النيَّة»** للقرافي أبي العبَّاس أحمد بن إدريس (ت: 684 هـ).

■ **«الإخلاص والنِّيَّة»** لابن أبي الدُّنيا أبي بكر عبد اللَّه بن محمَّد (ت: 281 هـ).

■ **«نهاية الإحكام في بيان ما للنِّيَّة من أحكام»** لأحمد بن أحمد بن يوسف الشَّافعي (ت: 1332 هـ).

■ **«الفعل الضَّارُّ والضَّمان فيه»** لمصطفى أحمد الزّرقا.

■ **«الضَّرورة والحاجة وآثارهما في التَّشريع الإسلامي»** للأستاذ عبد الوهَّاب إبراهيم أبي سليمان.

■ **«التَّحرير في قاعدة المشقَّة تجلب التَّيسير»** للأستاذ عامر سعيد اليباري.

■ **«العرف والعادة في رأي الفقهاء»** للشَّيخ أحمد فهمي أبي سنة.

■ **«القاعدة الكليَّة: إعمال الكلام أولى من إهماله»** للشَّيخ محمَّد مصطفى هرموش.

■ **«قاعدة: اليقين لا يزول بالشَّكِّ»** للدُّكتور يعقوب عبد الوهَّاب الباحسين.

---

(40) وهو كتابٌ مطبوعٌ، قام بنشره عبد الرَّحمن حمدة اللّزام الشَّريف ومحمَّد الأمين الكتبي، سنة (1344هـ ـ 1926م)، كما طبع مقتطف من مقدّمته بعنوان: «القاموس والوجيز للقرآن العزيز» بالمطبعة الجديدة بفاس سنة (1348هـ/1929م).

(41) هو أبو القاسم محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي، كان نابغًا في فنون شتَّى فقيهًا محدِّثًا أصوليًّا مقرئًا ومفسِّرًا، له عِدَّة مصنَّفات منها: «أصول القُرَّاء السِّتَّة غير نافع»، و«النُّور المبين في عقائد الدِّين»، و«وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم»، و«تقريب الوصول إلى علم الأصول»، توفي سنة (741هـ/ 1340م).
انظر ترجمته في: «الإحاطة» لابن الخطيب (20/3)، «الدِّيباج المذهَّب» لابن فرحون (295)، «نفح الطِّيب» لأبي العبَّاس المقَّري (515/5)، و«أزهار الرِّياض» للمقرِّي (135/3)، «شجرة النُّور» لمخلوف (213)، «الفكر السَّامي» للحجوي (240/3/2).

(42) «القوانين الفقهيَّة» لابن جزي (10).



ولا يخفى أنَّ هذه الدِّراسات الخاصَّة بقاعدة فقهيَّة واحدة تعتمد أساسًا على الكتب المؤلَّفة في القواعد الكليَّة الَّتي تمدُّها من غزارة المادَّة العلميَّة والفقهيَّة لتسهيل تناولها ضمن دراسات متخصِّصة ودقيقة.

هذا؛ وقد نبَّه بعض الأئمَّة إلى اختلاف مناهج المؤلِّفين في ترتيب القواعد الفقهيَّة موضوعًا ومضمونًا، وعدم مراعاة المعنى الاصطلاحي المحدَّد لكلمة «قاعدة كليَّة»، فضلاً عن دمج القواعد الفقهيَّة مع غيرها من القواعد الأصوليَّة والموضوعات الفقهيَّة، ومباحث المآخذ والعلل الَّتي يشترك فيها طلبًا لجمع المشتركات في قدر مشترك، وإدخال مثل ذلك في القواعد يُعَدُّ خروجًا عن التَّحقيق، ووَفق هذا المنظور المنهجي، قال ابن السُّبكي في مجموعة فصول: «وراء هذه القواعد ضوابط يذكرها الفقهاء، وليست عندنا من القواعد الكليَّة، بل من الضَّوابط الجزئيَّة الموضوعة لتدريب المبتدئين، لا لخوض المنتهين، ولتمرين الطَّالبين، لا لتحقيق الرَّاسخين، وهي مثل قولنا: العصبة كُلُّ ذكر ليس بينه وبين الميِّت أنثى، الولد يتبع أباه في النَّسب وأُمَّه في الرِّق، وأنحاء ذلك، وعندي أنَّ إدخالها في القواعد خروج عن التَّحقيق، ولو فتح الكاتب بابها لاستوعب الفقه وكرَّره وردَّده وجاء به على غير الغالب المعهود والتَّرتيب المقصود، ومن النَّاس من يدخل في القواعد تقاسيم تقع في الفروع يذكرها أصحابنا، فهي أقسام كثيرة ولا تعلُّق لهذا بالقواعد رأسًا، ويقرب منها تعديد فرق النِّكاح وأقسام البياعات، ومنهم من يدخل المآخذ والعلل، ومن يعقد فصلاً لأحكام الأعمى، وآخر لأحكام الأخرص، وهذا أيضًا ليس من القواعد في شيء، ومنهم من يشتغل بتقرير كونه مذهب الصَّحابي، والاستحسان مثلاً غير حجَّة، وهذا رجل عمد إلى باب من أبواب أصول الفقه فأحبّ النَّظر فيه.

وأغراض النَّاس تختلف، ولكلٍّ مقصد، ولسنا ننكر على أحد مقصده، وإنَّما إدخال شيء في شيء لا يليق به، ويكبر حجم الكتب بما لا حاجة إليه»[43] بتصرُّف.



(43) انظر: «الأشباه والنَّظائر» لابن السُّبكي (304/2، 312).

فقه النَّصيحة عند الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم

عز الدين رمضاني
رئيس التحرير

إنَّ مِنَ الحقوق العظيمة والواجبات الثَّقيلة الَّتي لا يقوى عليها إلاَّ من صفا قلبُه من الدَّغَل، وسَلِمَ لسانُه من الجدل، وتهيَّأ لأمانةٍ عظمى، ووهب نفسَه لخدمة أسمى، الحفاظ على سلامة الأديان والأعراض والأنفس والأموال، ولا يكون ذلك إلاَّ بإسداء النَّصيحة وتقبُّلها على الوجه الأكمل والمرضي، فهي نور سارٍ بين الأمَّة تشتدُّ بها صِلاتها وتتوثَّق من خلالها روابطها، إذ أنَّها تمثِّل في حقيقتها إرادة الخير للمنصوح له، وقد عرَّفها ابن الصَّلاح بقوله: «النَّصيحة كلمة جامعة تتضمَّن قيام النَّاصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً»[1].

وحسبنا بفضيلة النَّصيحة علوًّا وشرفًا أنَّها من الصِّفات الَّتي تحلَّى بها الأنبياء وسما بها الأتقياء الَّذين قام تبليغهم للرِّسالات السَّماويَّة على القول الصَّادق والبلاغ المبين والنُّصح الأمين، كما قال أوَّل الرُّسل نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾ [سورة الأعراف]، وكما قال هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ [سورة الأعراف]، وكما قال صالح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [سورة الأعراف]، وكما قال شعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾ [سورة الأعراف].

وقد جاء في شرعنا المطهَّر الأمر بها، أداءً وطلبًا، فكان من جوامع كلمه ﷺ: «**الدِّينُ النَّصيحَة**» وكرَّرها مرارًا إشارة منه إلى أهميَّتها ودورها في حياة المسلمين، وأنَّ الدِّين كلَّه ظاهره وباطنه منحصرٌ في النَّصيحة حتَّى قال أبو داود: «الفقه يدور على خمسة أحاديث: قوله ﷺ: «**الحَلاَلُ بَيِّنٌ والحرَامُ بَيِّنٌ**»، وقوله ﷺ: «**لاَ ضَرَرَ ولاَ ضِرَارَ**»، وقوله ﷺ: «**إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ**»، وقوله ﷺ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»، وقوله ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، وكان الحافظ أبو نعيم يقول في هذه العبارة:

(1) «صيانة صحيح مسلم» (ص221).

هذا حديثٌ له شأنٌ، وذكر محمَّد بن أسلم الطُّوسي أنَّه أحد أرباع الدِّين، وقال النَّووي: «بل هو وحده محصِّل لغرض الدِّين كلِّه»[2]، وتفسير ذلك أنَّ النَّصيحة جمعت كلَّ خير يبتغى ويؤمر به، وكلّ شيء يتَّقى وينهى عنه.

وممَّا يبيِّن أنَّ النَّصيحة من مهمَّات الأمور، وسوابق الفروض أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم عقدوا البيعة لأجلها، وتعهَّدوا أمام النَّبيِّ ﷺ على بذلها مقرونة مع أعظم شعائر الدِّين وخصال الإسلام وهما إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، ففي «الصَّحيحين» عن جرير ابن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: «بايعت رسول اللَّه ﷺ على إقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، والنُّصح لكلِّ مسلم»[3].

وفي بعض روايات الحديث: «بايعت رسول اللَّه ﷺ فشرَط عليَّ: والنُّصح لكلِّ مسلم»[4].

وهذا يدلُّ على كمال شفقته ﷺ بأمَّته حيث لم يستثن أحدًا ولو كان فاسقًا، ولنا أن ننظر إلى سمت هذا الصحابي الجليل، كيف تشبث بهذا العهد إلى أمد طويل، فإنَّه من حين أخذه البيعة من رسول اللَّه ﷺ على بذل النُّصح لكلِّ مسلم، لم يدع وقتًا يمرُّ عليه، أو فرصة سانحة تساق إليه إلاَّ وبذل لهم نصحه، وأسبل عليهم عطفه، إمَّا فعلاً هاديًا، وإمَّا قولاً مواتيًا، أمَّا الفعل فقد روى ابن حبَّان (4616) بإسناد صحيح أنَّ جريرًا رضي الله عنه «كان إذا اشترى شيئًا أو باعه يقول لصاحبه: اعلم أنَّ ما أخذنا منك أحبُّ إلينا ممَّا أعطيناكه؛ فاختر».

وروى الطَّبراني في «الكبير» (2/235) في ترجمته أنَّ غلامه اشترى له فرسًا بثلاثمائة درهم، فلمَّا رآه جاء إلى صاحبه فقال: إنَّ فرسك خير من ثلاثمائة، فلم يزل يزيده حتَّى أعطاه سبعمائة درهم أو ثمانمائة».

فهذا هو النُّصح المنافي للغبن، والصِّدق المنافي للغشِّ، فأين هذا من غدر بعض الباعة بزبائنهم، يكتمون عنهم عيوب السِّلع ثمَّ يتحدَّثون بعد ذلك فخرًا وسخريَّة أنَّهم استغفلوهم وغرَّرُوا بهم.

وأمَّا القول؛ فقد أخرج البخاري في «صحيحه» من كتاب الإيمان (58) أنَّه يوم مات المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه ـ وكان واليًا على الكوفة في خلافة معاوية رضي الله عنه ـ قام جرير بن عبد اللَّه رضي الله عنه فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال: «عليكم باتِّقاء اللَّه وحده لا شريك له، والوقار والسَّكينة، حتَّى يأتيكم أمير، فإنَّما يأتيكم الآن.

ثمَّ قال: استعفوا لأميركم، فإنَّه كان يحبُّ العفو، ثمَّ قال: أمَّا بعد: فإنِّي أتيت النَّبيَّ ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام فشرط عليّ: والنُّصح لكلِّ مسلم، فبايعته على هذا، وربِّ هذا المسجد إنِّي لناصح لكم، ثمَّ استغفر ونزل.

وفي هذه الخطبة وقفة سنيَّة، تحمل فقهًا وعلمًا، وتملي سياسة شرعيَّة، وترسم منهجًا أصيلا وتكشف قناعًا مضلِّلا.

فهذا الصَّحابي لما مات أمير البلاد قام في النَّاس خطيبًا على وجه بذل النَّصيحة للخلق، وليس له في الأمر مطمع، ولم يقم فيهم مهَيِّجًا للضَّغائن مثيرًا للعواطف، ومن فطنته رضي الله عنه أنَّه انتهز الوقت المناسب للتَّذكير، وفي ظرف غاب فيه التَّدبير والتَّأمير، فقطع السَّبيل على السُّفهاء والجهلاء،

(2) انظر: «فتح الباري» (1/138).
(3) البخاري (57)، ومسلم (58).
(4) البخاري (58).

وتكلَّم بلسان العقلاء والعلماء، فكان أوَّل ما أمرهم به هو تقوى الله تعالى، رأس الحكمة ومفتاح الحلّ، إذ هي العاصم من كلِّ هول، والمنجية من فتنة مدلهمَّة، وإنَّما قدَّم التَّقوى؛ لأنَّ الغالب أنَّ وفاة الأمراء تؤدِّي إلى الاضطراب والفتنة ولاسيما ما كان عليه أهل الكوفة إذ ذاك من مخالفة ولاة الأمور.

ثمَّ حثَّهم على التزام الوقار وهو الرَّزانة والحكمة والتَّعقُّل، وأردفه بالسَّكينة وهي السُّكون والهدوء، وترك الغوغاء وإثارة الفوضى والشَّغب، فجمع لهم بين رَجَاحة العقل وسلامة التَّصرُّف والعمل، وهما أمران ما اجتمعا عند شخص أو قوم إلاَّ كان حظُّهم النَّجاة والسَّلامة، ومن فقدهما لم يحصد إلاَّ الخزي والنَّدامة.

ولنا أن نتأمَّل في الحكمة الَّتي أوتيها هذا الصَّحابي وفي نظره البعيد وتقديره للعواقب لَمَّا قال لهم: حتَّى يأتيكم أمير، لما يعلم أنَّ النُّفوس ميَّالة إلى الطَّيش مهيَّأة للانتقام عند غياب الرَّادع والمؤدِّب، لذلك أمرهم بكبح جماح النُّفوس بوازع التَّقوى وارتداء لباس الوقار والسَّكينة إلى حين استخلاف الأمير الجديد.

ولم يقيِّد رضي الله عنه الأمير المستخلف بوصف الصَّلاح، بل قال أمير.

وهذا فيه من الفقه أنَّ الأمير حتَّى لو كان فاسقًا وعنده جور وظلم فوجوده خير من عدمه، وفي ولايته جلب للمصلحة ودرء للمفسدة؛ لأنَّ الله يزع بالسُّلطان ما لا يزع بالقرآن.

ثمَّ إنَّه عاجلهم البشرى، ولم يتركهم للحيرة، بل قال لهم: «إنَّما يأتيكم الآن»: وقد حمله على هذا القول حسن ظنِّه بالخليفة وإن لم يُعْلِمْهُ بإرسال الأمير، وقَرَّب لهم المدَّة تسهيلاً عليهم لا تيئيسًا لهم من الانتظار، وقد كان الأمر كذلك، فهو رضي الله عنه لما كان صادقًا في نصحه للأمَّة بعث معاوية إلى نائبه على البصرة وهو زياد أن يسير إلى الكوفة أميرًا عليها.

ثمَّ قال: «استعفوا لأميركم» أي اطلبوا له العفو من الله، والمقصود الأمير المتوفَّى، وهذا من الإحسان للموتى بدل الخوض في مثالبهم، والتَّشهِّي بذكر معايبهم، اعترافًا بالفضل وامتنانًا بما قدَّمه للأمَّة من رعاية مصالحها والقيام بشؤونها.

وقد علَّل طلبه للعفو بما كان عليه الأمير المتوفَّى من خلقٍ قويم وأدب سليم، حيث كان يحبُّ العفو إشارة منه إلى أن الجزاء يقع من جنس العمل.

وختم رضي الله عنه خطبته هذه ببيان الدَّافع الَّذي اضطرَّه إلى تقديم هذه النَّصيحة الغالية وهو وفاءه بالشَّرط الَّذي قطعه مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ببذل النُّصح لكلِّ مسلم، وقد وفَّى به قبل أن يدركه الموت، وأكده بالقسم وبيَّن أنَّ كلامه خالص عن الغرض والطَّمع.

وهكذا؛ فليكن النُّصحاء أو لا يكونوا، ثمَّ انظر هل يستوي هذا العاقل النَّاصح رضي الله عنه مع ذلك المهيج الثَّوري وما أكثرهم في زماننا الَّذين يستغلُّون فقدان وعي الجماهير، ويتاجرون بلحظات هوسهم وجنونهم ويدفعون بهم إلى الشُّرور والمهالك، وقانا الله شرَّ الضَّلال والرَّدى وجمع كلمتنا على الحقِّ والهدى، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه ومن اتَّبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.



قصة استضافة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما للنَّبيِّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يوم الخندق

د. رضا بوشامة
أستاذ الحديث بجامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

إنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم أُشربت قلوبهم حبَّ النَّبيِّ ﷺ، وإيثاره على أنفسهم وأهليهم، يتألَّمون لألمه، ويحزنون لِمَا يرون فيه من الضيِّق في العيش وهو رسول ربِّ العالمين، يجوع الأيَّام المتَوالية ولا يطعم شيئًا، بل يكون جوعه في وقت هو في أمسِّ الحاجة للشِّبع والقوَّة، والصَّحابة رضي الله عنهم من شدَّة حبِّهم له يقدِّمون له كلَّ نفيس يملكونه.

وقد وقعت وقائع عظيمة تدلُّ على شدَّة محبَّتهم لنبيِّهم ﷺ، ومن تلك الوقائع قصَّة جابر ابن عبد الله الأنصاري وامرأته سُهيلة بنت مسعود الأنصاريَّة رضي الله عنهما في استضافتهما للنَّبيِّ ﷺ يوم الخندق بعد أن رأى جابرٌ ما لحق به ﷺ من الجوع والشِّدَّة، وما في تلك القصَّة من الفوائد والمواعظ والعوائد الحسنة الكثيرة، وقد ذكر القصَّة الإمام البخاري في «صحيحه» وغيره.

* * *

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

«لَمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا[1]، فَانْكَفَأْتُ[2] إلى امْرَأَتِي فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شيء فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا[3] فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ[4] دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، فَفَرَغَتْ إِلَى فراغي، وَقَطَّعْتُهَا في بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ، فَقَالَتْ: لاَ تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّه ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه! ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ، وَنَفَرٌ مَعَكَ[5]، فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: **يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ! إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا[6] فحيَّ**

(1) يعني ضُمور بطنه من أثر الجوع.

(2) أي: انقلبت ومِلْتُ.

(3) جمعه جُرْب، وهو وعاء من جلد.

(4) تصغيرُ بَهْمَة، وهي الصغيرة من أولاد الغنم.

(5) النَّفر: بين الثَّلاثة إلى العشرة.

(6) السُّور دون همز بالفارسيَّة: كلُّ طعام يُدعى النَّاسُ إليه.

هلاً بكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**لاَ تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلاَ تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ**»، فَجِئْتُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ، فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا، فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «**ادْعِ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ، وَاقْدَحِي**[7] **مِنْ بُرْمَتِكُمْ، وَلاَ تُنْزِلُوهَا**»، وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ، وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ[8] كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ[9].

وفي رواية للبخاري أيضًا قَالَ: إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ[10]، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ المِعْوَلَ فَضَرَبَ فِي الكدية، فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ ـ أَوْ أَهْيَمَ ـ[11]، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه! ائْذَنْ لِي إِلَى البَيْتِ، فَقُلْتُ لامرأتي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا، مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شيءٌ؟ قَالَتْ: عندي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ[12]، فَذَبَحْتُ العَنَاقَ، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي البُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالعَجِينُ قَدِ انْكَسَرَ[13]، وَالبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ[14]، قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي[15]، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه! وَرَجُلٌ، أَوْ رَجُلاَنِ، قَالَ: «**كَمْ هُوَ؟**»، فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: «**كَثِيرٌ طَيِّبٌ**»، قَالَ: «**قُلْ لَهَا لاَ تَنْزِعِ البُرْمَةَ، وَلاَ الخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ**»، فَقَالَ: «**قُومُوا**»، فَقَامَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «**ادْخُلُوا وَلاَ تَضَاغَطُوا**[16]»، فَجَعَلَ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ، وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: «**كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**»[17].

فهذا جابر بن عبد الله من شدَّة محبَّته للنَّبيِّ ﷺ استضافه ومنح له كلَّ ما يملك في بيته، بعد أن رأى أثر الجوع على النَّبيِّ ﷺ، ولم يصبر رضي الله عنه أن يرى أفضلَ الخلق معصوب البطن لم يذق طعامًا لأيَّام، فساندته زوجه في تلك الضِّيافة الكريمة، إلاَّ أنَّها شعرت بالحرج

(7) أي: اغْرِفِي، والمِقدَحة المِغرَفة.

(8) أي تغلي غليانًا له صوت.

(9) «صحيح البخاري» (4102)، و«صحيح مسلم» (5436).

(10) القطعة الصُّلبة من الأرض التي لا تُحفر إلا بعد شدَّة.

(11) الكثيبُ قطعة من الرَّمل مستطيلة مُحْدَوْدبة وهي شبه الرَّبوة، والأهيَل: السيَّال من كثبان الرمل، يُقال: تهيَّل الرمل وانهال إذا سال، والأهيَم بالشك بمعنى أهيل، فهيَامُه سيلانُه.

(12) الجذَعة من المعز التي قاربت الحمل التي لا يجوز أخذها في الصدقة لصِغرها.

(13) كلُّ شيء فتر فقد انكسر، يريد أنه لان ورطب بإجادة عجنه.

(14) جمعُ أُثفية، وهي ثلاثة أحجار توضع لتُوضَع عليها القِدْر للطبخ، هذا أصلها عند العرب.

(15) من المبالغة في تحقيره، أي طعام قليل.

(16) أي: لا تزدحموا.

(17) «صحيح البخاري» (4101).



والحياء خاصَّة أنَّها أوصته أن يضيِّف رسول الله ﷺ ونفرًا معه، فلمَّا رأت كثرة المدعوِّين خشيت أن لا ينال النَّبيُّ ﷺ من ضيافتهم إلاَّ الشَّيء القليل، لكن عناية الله بهم كانت فوق توقُّعاتهم، إذ أكرمه ربُّه بآية من آياته، وهي تكثير الطَّعام بين يديه، فأكلَ وأكل الضِّيفان، وأكل أهل البيت وبقيت بقيَّة من الطَّعام المبارك.

وهذا دليل من دلائل نبوَّته، وهو من الآيات البيِّنات فيما للنَّبيِّ ﷺ من المعجزات، وأدركت سُهيلة رضي الله عنها ذلك بإيمانها وتوكُّلها على الله، وجاء بيان ذلك في رواية أخرى[18] ذكرها الحافظ في «الفتح»[19]، قال جابر: «فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلاَّ الله، قلت: جاءنا الخلق على صاع شعير وعَناق، فدخلت على امرأتي فقلت: افتُضحت، جاءك رسول الله النَّبي ﷺ بالجند أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ قلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا، فكشفت عنِّي غمًّا شديدًا».

☼ ففي هذه القصَّة فوائد غزيرة:

▫ ففيها بيان ما كان عليه ﷺ من حسن الخلق؛ إذ لم يستأثر بالطَّعام وحده، بل دعا أصحابَه كلَّهم، فشاركهم في الضَّرَّاء، كما شاركوه في السَّراء، بل لم يأكل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ حتَّى أدخلهم جماعة جماعة فكسر لهم الخبز وأطعمهم بيده الشَّريفة، حتَّى شبعوا.

▫ وفيه بيان ما كان عليه الصَّحابة رضي الله عنهم من الشِّدَّة والفقر والجوع، فأصابهم جهد شديد حتَّى ربط النَّبيُّ ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع، وكان ذلك كلُّه في وقت همْ أحوج للقوَّة، وهو الجهاد في سبيل الله، مع ذلك صبروا في ذات الله على تلك الشَّدائد والابتلاءات، فأكرمهم الله تعالى بالجنَّات.

▫ وفيه ما كان عليه النِّساء المؤمنات في ذلك العهد الزَّاخر من قوَّة الإيمان والتَّوكُّل على الله، فما كان من سُهيلة رضي الله عنها بعد أن استثبتت من زوجها: هل ذكر للنَّبيِّ ﷺ مقدار الطَّعام الَّذي كان عندهم حتَّى أتاها علم اليقين بأنَّ الله لن يخيب أملهما في إطعام النَّبيِّ ﷺ ومن معه من الجند الَّذين وصل عددهم الألف، فانكشف بكلامها ويقينها الغمُّ عن زوجها رضي الله عنه، وتيقَّنَا جميعًا بفتح الله تعالى عليهما، فكان أن بورك لهما في ضيافتهما؛ فأكل جميع الجند وبقيت بقيَّة للهديَّة.

▫ وفيه بيان لِما ينبغي أن يكون عليه المرء المسلم في أماكن الاجتماعات من الخلق الحسن والرِّفق بإخوانه وعدم الازدحام، وذلك من وصيَّته ﷺ للصَّحابة رضي الله عنهم بعدم الازدحام، وكانوا ألفًا، فدخلوا عشرة عشرة، والمكان لضيقه في بيت جابر لا يتَّسع إلاَّ لذاك العدد، فأكرمهم الله تعالى بأن طعموا جميعًا وشبعوا

(18) «دلائل النُّبوَّة» للأصبهاني (209/1)، و«دلائل النُّبوَّة» للبيهقي (1101).

(19) (398/7).

رضي الله عنهم، وهذا عكس ما نراه اليوم في بعض التَّجمُّعات من اللَّهث واللَّهف حول ما يوزَّع من الطَّعام خاصَّة في أيَّام المواسم كالحجِّ ورمضان من بعض الجهَّال والعوامِّ.

- وفيه الحثُّ على الإحسان والتَّصدُّق على النَّاس، خاصَّةً في أيَّام الحاجة؛ كالمجاعات وما يصيب النَّاس من ابتلاءات كالزَّلازل والفياضانات وغيرها، ففي هذه الأحوال يحتاج النَّاس إلى مدِّ يد العون لهم والرَّحمة بهم والسَّعي لرفع همومهم وغمومهم: «**كُلِي هَذَا وَأَهْدِي؛ فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**»، فهذا من كمال هديه ﷺ وكريم أخلاقه وحبِّه لنفع النَّاس وإيصال الخير لهم، فحريٌّ بالمسلم أن يأتسي به في أخلاقه وحسن معاملته للخلق.

- وفيه أنَّ لصاحب الطَّعام أن يقدِم إلى طعامه ممَّن حضره من شاء من غير قرعة وإن كان قد دعاهم جميعًا إذا علم أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يصله من الطَّعام ما يكفيه في ذلك الوقت.

- وفيه أنَّ الصَّديق الملاطف قد يأمر في دار صديقه بما يحبُّ إذا علم رضى صاحب البيت بذلك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ تولَّى تقديم الطَّعام وكسر الخُبْز لأصحابه بنفسه، وهو فعل يرضاه أهل الكرم من الضَّيف ويحسون به أُنْس الضَّيف، حتَّى قد لا يعلم النَّاس صاحب البيت من الضَّيف، كما قال قائلهم:

يستأنس الضَّيف في أبياتنا أبدًا
فليس يعرف خَلقٌ أيُّنا الضَّيف

- وفيه أيضًا ما يجب أن تكون عليه النِّساء المؤمنات من التَّعاون في أيَّام المناسبات كالأفراح والأعراس وغيرها، من طهي الطَّعام جماعةً ومساعدة صاحبة الوليمة في شؤونها «**ادْعِ خَابزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَك**»، وهذا من باب التَّكافل بين المسلمين، الَّذي بدأت ظاهرته تنعدم في بعض المجتمعات.

والله أعلى وأعلم، وصلَّى الله على نبيِّنا وعلى آله وسلَّم.





الإخلاص وأثره على طالب العلم

خالد لوصيف
ليسانس في الشريعة الإسلامية ـ الجزائر

أفضل ما اكتسبته النُّفوس وحصَّلته القلوب، ونال به العبدُ الرِّفعةَ في الدُّنيا والآخرة؛ العلم والإيمان[1].

ولذلك لا تحصل السَّعادة الدَّائمة إلاَّ بهما، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: 97].

وطلب العلم عبادة؛ لذلك اشترط لقبوله ونفعه شرط الإخلاص، فإنْ فقد انتقل من أفضل العبادات إلى أحطِّ المخالفات، فالعلم لا يعدله شيء لمن صحَّت نيَّته وسلمت طويَّته[2]، قال الثَّوري: «ما نعلم شيئًا أفضل من طلب العلم بنيَّة»[3].

(1) «الفوائد» لابن القيِّم (ص103).

(2) انظر: «مسائل أحمد» لابن هانئ (1932)، و«طبقات الحنابلة» (146/1).

(3) «سير أعلام النُّبلاء» (244/7).

وقعَّد الرَّسول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ للإخلاص قاعدةً عظيمةً لَمَّا سُئل عن الرَّجل يُقاتل للمغنم والرَّجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[4].

فأجابهم بكلمة جامعةٍ مع الزِّيادة عليه، حتَّى شمل جميع صور العمل، فمن خلط نيَّة العمل لله بغيرها لم يقبل منه، كما قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في الحديث الآخر: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»[5].

كما ورد الوعيد فيمن طلب العلم لغير وجه الله على الخصوص في قوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ** عزَّ وجلَّ**، لاَ**

(4) رواه البخاري (2655) ومسلم (1904).

(5) رواه النَّسائي (4348)، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (7628)، وانظر: «صحيح الجامع» (1856).

يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ ـ يعني ريحها ـ»[6]، فمن طلب العلم ليجاريَ به العلماء ويماريَ به السُّفهاء وليصرف الأعين إليه؛ كان يوم القيامة من الثّلاثة الّذين تُسَجَّر بهم النّار[7].

ولَمَّا كانت النِّيَّة شرودًا؛ كان واجبًا ـ حينئذ ـ على كلِّ مسلم أن يعالجها ويأطرها أطرًا، وما أصعب استبقاء النِّيَّة سالمة من المقاصد الدُّنيويَّة، قال الثّوري: «ما عالجت شيئًا أشدّ عليَّ من نيّتي، إنّها تنقلب عليَّ»[8].

وكيفية هذه التَّنقية بيّنها الإمام أحمد لَمَّا سُئل كيف النِّيَّة؟ فقال: «يعالج نفسه إذا أراد عملاً لا يريد به النَّاس»[9].

○ وآثار الإخلاص على طالب العلم كثيرة، أذكر منها:

1. الخشية تورث العمل:

إنَّ أعظم ما يورثه العلم في قلب صاحبه بسبب الإخلاص الخشية من الله، ومعنى هذا مرويٌّ عن ابن مسعود رضي الله عنه بألفاظ مختلفة، منها: «كفى بخشية الله عِلْمًا»[10]، ويصدقه أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل الخشية صفة يورثها العلم به، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، وقال يحيى بن أبي كثير رحمه الله: «العالم من يخشى الله عزَّ وجلَّ»[11].

فالخشية في قلب طالب العلم تحمله على الطّاعة والعبادة وإلاَّ فليتَّهم نيَّته.

والّذي يقلِّب ناظريه في كتاب الله يجد أنَّ العمل قرين العلم، حتّى كان السّلف لا يفصلون بينهما.

قال هَرِمُ بن حيَّان رحمه الله: «إيَّاكم والعالم الفاسق، فبلغ عمر، فكتب إليه ـ وأشفق منها ـ ما العالم الفاسق؟! فكتب إليه هرم: والله! يا أمير المؤمنين! ما أردت إلاَّ الخير، يكون إمام يتكلَّم بالعلم ويعمل بالفسق ويشبه على النَّاس فيضلُّوا»[12].

قال الذَّهبيُّ معلِّقًا: «إنَّما أنكر عليه عمرُ؛ لأنَّهم لم يكونوا يعدُّون العالم إلاَّ من عمل بعلمه»[13].

وإذا جعل العبد غاية علمه العمل به؛ كسره العلم وبلغ مراده إن شاء الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، وقال إبراهيم النَّخعي رحمه الله: «من ابتغى شيئًا من

(6) رواه أبو داود (3666) وابن ماجة (252)، وانظر: «صحيح الجامع» (6159).

(7) صحَّ بذلك الخبر، كما في «سنن التِّرمذي» (2382)، وأصله في «صحيح مسلم» (1905).

(8) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (5/7)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الرَّاوي» (1/317).

(9) «جامع العلوم والحكم» (ص10).

(10) رواه ابن المبارك في «الزُّهد» (ص15)، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (7/104)، ورواه الدَّارمي في «سننه» (1/346) بلفظ: «كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله».

(11) رواه أبو نعيم في «الحلية» (3/67)، ورواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (2/349) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(12) رواه أحمد في «الزُّهد» (ص232) والدَّارمي في «سننه» (1/108).

(13) «تاريخ الإسلام» (5/534).

العلم يبتغي به وجه الله آتاه الله منه ما يكفيه»[14].

وعلامة المخلص في طلب العلم أنَّه كلَّما ازداد عِلْمًا كُلَّمَا صفت نيَّته وسلمت من الكَدَر والزَّغَل، حتَّى لا يبقى فيها حسيكة.

قال مجاهد رَحِمَهُ الله: «طلبنا العلم وما لنا فيه كبير نيَّة، ثمَّ رزق الله بعد فيه النِّيَّة»[15].

وقال معمر رَحِمَهُ الله: «كان يقال إنَّ الرَّجل ليطلب العلم لغير الله؛ فيأبى عليه العلم حتَّى يكون لله»[16].

قال الذَّهبي معلِّقًا: «قلت: نَعْم، يطلبه أوَّلاً، والحامل له حبُّ العلم وحبُّ إزالة الجهل عنه وحبُّ الوظائف ونحو ذلك، ولم يكن عَلِمَ وجوب الإخلاص فيه، ولا صِدْق النِّيَّة، فإذا علم حاسب نفسه، وخاف من وَبَالِ قصده؛ فتجيئه النِّيَّة الصَّادقة كلُّها أو بعضُها، وقد يتوب من نيَّته الفاسدة ويندم»[17].

2 ـ هجر دعوى الإخلاص والإتقان:

إنَّ المخلص من طلاَّب العلم هو الَّذي يجتهد في طلبه على قدر الطَّاقة والوسع، ومع هذا لا ينظر إلى نفسه بعين الكمال، بل تراه يزدري نفسه ويهضمها ويتَّهمها بالتَّقصير.

قالت عائشة رضي الله عنها: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60] أهم الَّذين يشربون الخمر ويسرقون؟

قال: «**لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَلاَّ يُقْبَلَ مِنْهُمْ**»[18].

فإذا رأى المشتغل بالعلم أنَّه بلغ منتهى الإتقان والإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص.

قال الوليد بن مسلم رَحِمَهُ الله: «سألت الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟ كلُّهم يقول لنفسي غير ابن جريج فإنَّه قال: طلبته للنَّاس[19].

قال الذَّهبي معلِّقًا: قلت: ما أحسن الصِّدق! واليوم تسأل الفقيه الغبيَّ: لمن طلبت العلم؟ فيبادر ويقول: طلبته لله، ويكذب، إنَّما طلبه للدُّنيا، ويا قلَّة ما عرف منه»[20].

وقيل لأحمد رَحِمَهُ الله: هل طلبتم العلم لله؟

قال: «أمَّا لله فعزيز، ولكن حُبِّب إليَّ شيء فجمعته»[21].

وقال هشام الدّستوائي رَحِمَهُ الله: «والله! ما أستطيع أن أقول: إنِّي ذهبت يومًا قطُّ أطلب

(14) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (208/7)، والدَّارمي في «سننه» (94/1).

(15) رواه عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (239/10).

(16) رواه عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (256/11)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الرَّاوي» (939/1).

(17) «سير أعلام النُّبلاء» (17/7).

(18) رواه التِّرمذي (3175)، وانظر: «صحيح سنن التِّرمذي» (2537).

(19) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (402/10).

(20) «سير أعلام النُّبلاء» (328/6).

(21) «البداية والنِّهاية» (364/10)، وانظر: «روضة المحبِّين» (ص69).

الحديث أريد به وجه الله عزّ وجلّ»[22].

قال الذَّهبيُّ معلِّقًا: «والله! ولا أنا، فقد كان السَّلف يطلبون العلم لله فنبلوا وصاروا أئمَّة يُقتدى بهم»[23].

ورحم الله الذَّهبي؛ فإنَّه كان على سجيَّتهم يتَّهم نفسه بالتَّقصير مع أنَّه كان رأسًا في الحديث وعلومه حيث قال عن نفسه: «وجمع تواليف يقال ـ مفيدة ـ والجماعة يتفضَّلون ويثنون عليه، وهو أخبر بنفسه وبنقصه في العلم والعمل، والله المستعان، ولا قوَّة إلاَّ بالله، وإذا سلم لي إيماني فيا فوزي»[24].

3 ـ كراهية الحظوة والمحمدة:

قال ابن القيِّم رحمه الله: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبَّة المدح والثَّناء والطَّمع فيما عند النَّاس إلاَّ كما يجتمع الماء والنَّار والضَّبّ والحوت»[25].

والإخلاص هو عكوف القلب على الله فلا يخرج بإرادته عن طلب مرضاته.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «ما صدق اللهَ عبدٌ أحبَّ الشُّهرة»[26].

وقال أيوب السختياني رحمه الله: «والله! ما صدق عبد إلاَّ سرَّه أن لا يُشعر بمكانه»[27].

(22) «تاريخ الإسلام» للذَّهبي (655/9).

(23) «سير أعلام النُّبلاء» (152/7).

(24) «المعجم المختصّ» (ص97).

(25) «الفوائد» (ص149).

(26) رواه البخاري في «التَّاريخ الكبير» (363/4).

(27) رواه أبو نعيم في «الحلية» (6/3) وبنحوه ابن أبي الدُّنيا في كتاب «التَّواضع والخمول» (ص118).

فطلب العلم للشُّهرة والحظوة والمحمدة يعدُّ من الأعواض الدُّنيويَّة والأغراض الدَّنيئة، ولا شكَّ أنَّها وبال على صاحبها وصفقة خاسرة في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾ [سورة الليل].

وقال حافظ الحكمي:

ومن يكن ليقول النَّاس يطلبه
أخسر بصفقته في موقف النَّدم[28]

وقال بريدة بن الحُصَيب رضي الله عنه: «شهدت خيبر وكنت فيمن صعد الثُّلمة فقاتلتُ حتَّى رئي مكاني وعليَّ ثوب أحمر، فما أعلم أنِّي ركبت في الإسلام ذنبًا أعظم منه ـ قال للشُّهرة ـ»[29].

قال الذَّهبي معلِّقًا: «قلت: بلى، جهَّال زماننا يعدُّون اليوم مثل هذا الفعل من أعظم الجهاد»[30].

ومجالس الشُّهرة الَّتي يسعى إليها كثير منَّا كان السَّلف يفرُّون منها فرارهم من الأسد.

قال حمَّاد بن زيد رحمه الله: «كان أيُّوب يأخذني في طريق، وهي أبعد، فأقول: إنَّ هذا أقرب، فيقول: إنِّي أتَّقي هذه المجالس»[31].

وقال أيضًا: «كنت أمشي مع أيُّوب، فيأخذني في طريق إنِّي لأعجب كيف اهتدى لها فرارًا من

(28) «المنظومة الميميَّة في الوصايا والآداب العلميَّة» للحافظ الحكمي.

(29) رواه ابن عديٍّ في «الكامل» (34/2)، وانظر: «تاريخ الإسلام» (77/5).

(30) «سير أعلام النُّبلاء» (470/2).

(31) رواه ابن سعد في «الطَّبقات الكبرى» (248/7).

النَّاس أن يقال: أيُّوب»[32].

وقال ثابت البناني رَحِمَهُ اللَّهُ: قال لي محمَّد ابن سيرين: «يا أبا محمَّد لم يكن يمنعني من مجالستكم إلاَّ مخافة الشُّهرة»[33].

وعن يحيى ابن سعيد الأنصاري عن خالد ابن معدان أنَّه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشُّهرة[34]، وعن ليث عن أبي العالية أنَّه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام[35]، فطالب العلم المخلص هو الَّذي يسعى أن يَعرف ولا يُعرف وأن يَمشي ولا يُمشى إليه وأن يَسأل ولا يُسأل[36].

بل كانوا قديمًا لشدَّة إخلاصهم يميلون إلى خمول الذِّكر ويحبُّون ألاَّ يُنسب إليهم من العلم شيء، كما قال الشَّافعي: «وددت لو أنَّ الخلق تعلَّموا هذا العلم على ألاَّ يُنسب إليَّ منه حرف»[37].

وقال: «وددت إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الحقّ على يديه»[38].

(32) رواه ابن سعد في «الطَّبقات الكبرى» (249/7).

(33) رواه البخاري في «التَّاريخ الكبير» (123/5) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (228/53).

(34) رواه ابن أبي الدُّنيا في كتاب التَّواضع والخمول (ص121)، وانظر: «تهذيب التَّهذيب» (103/3).

(35) رواه ابن أبي الدُّنيا في كتاب التَّواضع والخمول (ص122).

(36) من كلام ابن محيريز، رواه عنه أحمد في كتاب «الزُّهد» (ص388)، وأبو نعيم في «الحلية» (141/5).

(37) رواه أبو نعيم في «الحلية» (118/9) وبنحوه ابن حبَّان في «صحيحه» (436/5).

(38) رواه أبو نعيم في «الحلية» (118/9)، وانظر: «المدخل للسُّنن الكبرى» (ص172)، و«تهذيب الأسماء» (53/1).

فالمخلص يحب انتشار الخير بين النَّاس ولو على لسان غيره، فلو ظهر من هو أحسن منه وعظًا وأغزر منه علمًا والنَّاس له أشد قبولاً فرح به ولم يحسده، ولم يعاده، بل رغَّب فيه ودعا له بالتَّوفيق والسَّداد.

4 ـ الاهتمام بما يعنيه:

من حَسُن إسلامه وكَمُل إيمانه وتمَّ إخلاصه، اهتمَّ بما يفيده قولاً وفعلاً ونظرًا وفكرًا، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ**»[39].

وأوَّل ما يبدأ به طالب العلم الحرص على ما يحتاجه عاجلاً وتقديمه عمَّا لا يحتاجه في الحال، وإلاَّ فلا يتعنَّ.

قال عبد الرَّحمن بن مهدي: «لا يكون إمامًا في العلم من أخذ بالشَّاذِّ من العلم»[40].

فالإخلاص يقود صاحبه إلى تحصيل فروض الأعيان لا إلى تقفّر المسائل المقفلة، ولذلك لو ابتدأ الطَّالب الغِرُّ ـ قبل أن يتحصرم ويشتدَّ عودُه ـ بتتبُّع الطُّبوليَّات وقراءة المطوَّلات وجرد المبسوطات ومطالعة تفاريق المصنَّفات؛ فإنَّه سيكون حتمًا متشبِّعًا بما لم يُعْطَ، مهتمًّا بما لا يعنيه، مدَّعيًا ما ليس فيه، وغاية تحصيله شقائق وعبارات ليست من عدة القبر ولا من زاد المعاد، وهذا من

(39) رواه التِّرمذي (2317) وابن ماجه (3976)، وانظر: «صحيح الجامع» (5911).

(40) رواه ابن عبد البرِّ في «جامع بيان العلم وفضله» (820/2)، وانظر: «التَّمهيد» (64/1).

شرِّ غوائل العلم وأوَّل طريق التَّعالم.

ولهذا المعنى الخطير؛ نهى السَّلف عن المسائل الأغاليط، وهي شدادها الَّتي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها، فيهيج بذلك شرٌّ وفتنة[41]، حتَّى قال الحسن: «شرار عباد الله ينتقون شرار المسائل يعمون بها عباد الله»[42].

ومثله تكلُّف المسائل الَّتي يستحيل وقوعها أو يندر كما قال تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101]، وقال أحمد: «شرُّ الحديث الغرائب الَّتي لا يعمل بها ولا يعتمد عليها»[43].

ومن قلَّة الدِّيانة: التَّوسُّع في الجدال مع ترك أوَّليات العلم وأولوياته، قال الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شرًّا فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل»[44]، وما يشتهي المرارة ويطلبها إلاَّ الباحث عن مكاسب دنيويَّة فتورثه قساوة القلب كما قال مالك: «المراء في العلم يقسِّي القلب ويورث الضَّغائن»[45].

والإخلاصُ يمنع طالبَ العلم من التَّصدُّر للتَّصنيف والتَّأليف قبل كمال الأهليَّة؛ لأنَّ هذا ممَّا لا يعنيه.

قال النَّووي: «وليحذر كلَّ الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهَّل له، فإنَّ ذلك يضرُّه في دينه وعلمه وعرضه»[46].

ومن إخلاص العالم تهيُّبه من الفتوى وعدم تجاسره عليها لعلمه أنَّها بابٌ عظيم وتوقيع عن ربِّ العالمين، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس]، وقال ابن المنكدر: «العالم بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل بينهم»[47].

وفي باب تدافع الفتوى عند الصَّحابة رضي الله عنهم يقول ابن أبي ليلى: «لقد أدركت عشرين ومائة من الأنصار، ما منهم من أحد يسأل عن الفتوى إلاَّ ودَّ أنَّ أخاه كفاه الفتيا»[48].

5. **المداومة على طلب العلم:**

لابدَّ لصرح العلم أن يُبنى على فسطاط الإخلاص، فيدوم بقاؤه إلى أن يموت العبد وهو طالبٌ للعلم، ولذلك أمر الله نبيَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ باستزادته من العلم، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]، مع أنَّه هو القائل له: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: 113]، ولم يزل

---

(41) انظر: «معالم السُّنن» (4/176)، و«غريب الحديث» للخطَّابي (1/354).

(42) رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقِّه» (1/50)، والهروي في «ذمّ الكلام» (3/194).

(43) رواه الخطيب في «الكفاية» (ص141)، وانظر «شرح علل التِّرمذي» لابن رجب (1/408).

(44) رواه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (ص79)، والهروي في «ذمّ الكلام» (5/123).

(45) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (61/205)، ونسبها البيهقيُّ في «الاعتقاد» (ص239) للشَّافعي.

(46) «المجموع» (1/30).

(47) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (33/361)، وبنحوه في «الفقيه والمتفقِّه» (2/49).

(48) رواه ابن المبارك في «الزُّهد» (ص19)، والدَّارمي في «سننه» (1/65).

النبيُّ - عليه الصَّلاة والسَّلام - يأخذ العلم والوحي حتَّى توفَّاه اللَّه، كما قال أنس رضي الله عنه: «إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ تابع الوحي على رسول اللَّه ﷺ قبل وفاته حتَّى توفِّي، وأكثر ما كان الوحي يوم توفِّي رسول اللَّه ﷺ»(49).

فمن طلب العلم ليصل به إلى مرضاة اللَّه لم يجعل لطلبه حدًّا دون حشرجة الرُّوح.

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [سُورَةُ الحِجْرِ].

وكان الإمام أحمد على كبر سنِّه يحمل المحبرة! فقيل له: إلى متى؟!

فقال: «مع المحبرة إلى المقبرة»(50).

وقال أيضًا: «أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر»(51).

وقيل لابن المبارك: إلى متَى تكتب الحديث؟!

فقال: «لعلَّ الكلمة الَّتي أَنْتَفِعُ بها لم أكتبها بعد»(52).

وعلوُّ الهمَّة وعدم الفتور في طلب العلم سِمَة أسلافنا، ولا تتحقَّق إلاَّ بالإخلاص، فهذا الإمام البخاري رحمه الله قصرت به النَّفقة حتَّى أكل الحشيش(53).

وهذا عمر بن عبد الكريم الرّواسي سقطت أصابع يده في الرِّحلة من شدَّة البرد(54).

وهذا مالك نقض سقف بيته فباع خشبه من أجل العلم(55).

والمطالع لتراجم القوم وسيرهم يندهش لقوَّة صبرهم على شظف العيش ومرارته، ولم يطرح أحدهم عصا التّسيار والتِّرحال في طلب العلم واهتمُّوا بتدوينه وهم على فراش الموت.

قيل لَمَّا حضرت أبا جعفر الطبري رحمه الله المنيَّةُ وسمع دعاء جعفر بن محمَّد: «يا سابق الفوت! ويا سامع الصَّوت!» استدعى محبرة وصحيفة فكتبه فقيل له: أفي هذه الحال؟!

فقال: «ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتَّى يموت»(56).

واللَّه أعلم، وصلَّى اللَّه على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(49) رواه البخاري (4982)، ومسلم (3016)، واللَّفظ لمسلم.

(50) «مناقب أحمد» لابن الجوزي (ص31)، وانظر: «تلبيس إبليس» (400).

(51) رواه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص136).

(52) رواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الرَّاوي» (419/4)، وبنحوه عند الهروي في «ذمِّ الكلام» (217/5).

(53) «سير أعلام النُّبلاء» (448/12).

(54) «سير أعلام النُّبلاء» (318/19).

(55) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (13/2).

(56) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (199/52)، وانظر: «الجليس الصَّالح» للمعافى بن زكرياء (222/3).

فتاوى شرعية

أ. د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حكم التّعامل مع البنوك الرِّبويّة بمعاملات مباحة

السُّؤال:

ما حكم التَّعامل مع البنوك الرِّبويَّة بمعاملات مباحة؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فالأصلُ ترك التَّعامل مع البنوك الرِّبويَّة مُطلقًا، ولو تجرَّدت المعاملة من الرِّبا المحرَّم؛ لِمَا في التَّعامل التِّجاري مع هذه البنوك من الإقرار على الرِّبا والرِّضى به مجسَّدًا في التَّعاون على رباهم وتقويتهم عليه ودعم معاملاتهم الرِّبويَّة، مع لفت النَّظر إلى أنَّ معظم المعاملات المباحة مع البنوك الرِّبويَّة تتضمَّن مخالفات شرعيَّة ظاهرة البطلان كاشتراط التَّأمين التِّجاري في الصَّفقات المباحة، والتَّأمين على كلِّ الأخطار، واشتراط الاقتراض إذا باشر المتعاقدُ العملَ في المشروع مثلاً، وفرض غرامة على التَّأخير ونحو ذلك.

ولا يخفى أنَّ العقود المباحة إذا ما اقترنت بها شروط وقيود فاسدة؛ فإنَّها إمَّا أن تُصيِّر العقود باطلة أو يبطل الشَّرط دون العقد، وكلا الحالتين لا تتمُّ في ظلِّ نظام البنوك والمصارف الرِّبويَّة؛ لعدم انتظامها بالحكم الشَّرعي، لذلك كان التَّعامل منهيًّا عنه ومشمولاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2]، وهذا في الأحوال العاديَّة.

أمَّا عند قيام الحاجة والضَّرورة؛ فإنَّ المسلم إذا احتاج أو اضطرَّ إلى التَّعامل بالمعاملات المباحة مع البنوك الرِّبويَّة الَّتي لا يجد سبيلاً إلى غيرها؛ فإنَّه يجوز له إذا دعت الضَّرورة وبشرطها[1] كتحويل

(1) انظر ضوابط الضَّرورة الشَّرعيَّة على الموقع، الفتوى رقم: (643) الموسومة بـ: «في ضوابط قاعدة «الضَّرورات تبيح المحظورات».



الأموال عن طريق البنوك بأجرة لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: 119]، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

في حكم بيع الوَقْف

السُّؤال:

هل يجوز شراء عقارات ومحلاَّت أصلها وَقْفٌ، عُرضت للبيع من الجهات المسؤولة عن طريق المزايدة أو غيرها؟

الجواب:

الأصلُ أنَّ الوقف الصَّحيحَ اللاَّزمَ الَّذي يحصل به مقصود الوقف من الانتفاع لا يجوز بيعه ويمتنع شراؤه[2]، ولا يُشرع التَّصرُّف فيه بأيِّ شيءٍ يزيل وقفيتَه، لِمَا صحَّ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**أصابَ عمرُ أرضًا بخَيْبَرَ، فَأَتَى النَّبيَّ ﷺ يَسْتَأمِرُهُ فِيهَا فَقَالَ: يا رسولَ اللهِ! إنِّي أصَبْتُ أرضًا بخَيبَرَ لم أُصِبْ مالاً قَطُّ هو أنْفَسُ عندي منهُ، فما تأمرُني بهِ؟ قال: إن شئتَ حَبَسْتَ أصلَها وتَصَدَّقتَ بها، قال: فَتَصدَّقَ بها عمرُ: أنَّهُ لا يُباعُ أصلها، ولا يبتاع ولا يورث ولا يوهَبُ، قال: فتصدَّقَ عمر في الفُقراءِ وفي القُرْبى وفي الرِّقاب وفي سبيلِ اللهِ وابنِ السَّبيلِ والضَّيفِ، لا جُناحَ على مَن وَلِيَها أن يأكُلَ منها بالمعروف، أو يُطْعِمَ صَدِيقًا غيرَ مُتموِّلٍ فيه**»، متَّفق عليه، واللَّفظ لمسلم[3].

وفي رواية البخاري: «**تَصَدَّقْ بأَصلِهِ: لاَ يُبَاعُ وَلَكِنْ يُنْفَقُ ثَمَرُهُ، فتَصَدَّقَ بِهِ**»[4].

فإن تعطَّلت منافع الوقف بالكليَّة، ولم يمكن الانتفاع به ولا تعميره وإصلاحه كدارٍ انهدمت، أو محلٍّ بيع قَلَّ العائدُ منه، أو أرضٍ خربت وعادت مواتًا ولم يمكن عمارتها، أو مسجدٍ انتقل أهل القرية عنه أو ضاق بأهله ولم يمكن توسيعه، فيجوز ـ عند تعطل منافعه ـ أن يُباع الوقف للحاجة، ويُشْترى ما يقوم مقامه، وهو مذهب أحمد، ورواية عن مالك، واختاره ابن تيمية وابن القيِّم[5] ـ رحمهم الله ـ.

ذلك لأنَّ الوقف المحبوس إذا لم يحصل به المقصود قام بدلُه مقامَه، فالمسجد إذا تخرَّب يُباع ويُشترى بثمنه ما يقوم مقامه وهو مسجد آخر؛ لأنَّ الواقف غرضه في الجنس، والجنس واحد، فصرفه في جنس المقصود أولى، وهو أقرب الطُّرق إلى مقصود الواقف.

ويدلُّ على ذلك ما روي أنَّ عمر رضي الله عنه كتب إلى سعد رضي الله عنه لما بلغه أنَّه قد نُقِبَ بيت المال الَّذي بالكوفة: «أن انقل المسجد الَّذي بالتَّمَّارين، واجعل بيت المال ممَّا يلي القبلة؛ فإنَّه لا يزال في المسجد

(2) البيع كلمةٌ جامعة مشتركة بين البيع والابتياع، وهي من الأضداد. [انظر: «الأضداد» للأنباري (73، 199)].

(3) أخرجه البخاري (5/708)، ومسلم (2/770).

(4) أخرجه البخاري مُعلَّقًا (5/ 284).

(5) انظر: «الكافي» لابن عبد البرِّ (541)، «المغني» لابن قدامة (5/631)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (31/252)، «بدائع الفوائد» لابن القيم (3/128).

من يصلّي»[6]، وكان هذا بمشهد من الصَّحابة رضي الله عنهم ولم يظهر خلافه فكان إجماعًا[7].

هذا؛ وإذا تقرَّر جواز بيع الوقف عند تعطُّل منافعه فلا يجوز للنَّاظر على الوقف الاستقلال بمفرده بتحقيق مناط تعطُّل منافع الوقف، خشية أن يكون تحقيقه للمناط قاصرًا، لذلك يجب رفع الأمر إلى جهة مسؤولة ـ فعلاً ـ أو إلى قاضي البلد ليشكِّل من أهل الخبرة جماعةً لدراسة وضع الوقف، ثمَّ يُباع ويُصرف ثمنه في غيره ممَّا يكون وقفًا أولويًّا من جنسه، وذلك إذا كان تقرير الخبرة يقضي بتعطُّل منافعه، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

في ضوابط الاستفادة من كتب المبتدعة

السُّؤال:

ما هي ضوابط الاستفادة من كتب أهل البدع؟ وهل يمكن الإحالة عليها في البحوث والمقالات؟

الجواب:

لا يتوقَّف النَّظر في مسألة تلقِّي العلم على أهل البدع والاستفادة من كتبهم ومؤلَّفاتهم على صدق المبتدع أو عدمه بقدر ما يُنظر فيها إلى نوع العلم الَّذي يلقيه أو يسطِّره في كتابه، ومدى تأثُّر النَّاس به وببدعته.

(6) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (192/9)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(7) «المغني» لابن قدامة (633/5).

ومن زاوية هذه الرُّؤية؛ يُفرَّق بين من يمتلك آلة التَّمييز بين الحقِّ والباطل وبين فاقد أهليَّة التَّمييز.

❖ فإنْ كان نوع العلم الَّذي تضمَّنه مؤلَّفهم يحتوي على فسادٍ محضٍ من زيغٍ وضلالٍ وخرافةٍ في الاعتقاد وتحكيمٍ للهوى وعدولٍ عن النُّصوص الشَّرعية، وانحراف عن الأصول المعتمدة، ككتب أهل الكلام والتَّنجيم، سواء صدر من رافضيٍّ أو خارجيٍّ أو مرجئٍ أو قدريٍّ أو قُبوريٍّ؛ فإنَّ نصوص الأئمَّة في كتب السِّير والاعتصام بالسُّنَّة حافلةٌ بمنابذة المبتدعة والتَّخلِّي عن الاستفادة من مؤلَّفاتهم وكتبهم خشيةَ الافتتان بآرائهم المخالفة للسُّنَّة والتَّأثُّر بفساد أفكارهم والانزلاق في بدعتهم وضلالهم، وقد حذَّروا من النَّظر في كتب أهل الأهواء، وحثُّوا على إبعادها وإتلافها تعزيرًا لأهل البدع، وتفاديًا لمفسدة التَّأثُّر بها.

ويدلُّ عليه قصَّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فغضب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال: **«أَمُتَهَوِّكُونَ فيهَا يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟! وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بحَقٍ فَتُكَذِّبُوا بهِ، أَوْ ببَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي»**[8].

(8) أخرجه أحمد (378/3، 387)، والدارمي (115/1)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وفي سنده مجالد، وهو ضعيف، وله شاهد بنحوه من حديث عبد الله بن شدَّاد رضي الله عنه عند أحمد (470/3، 471)، وفي سنده جابر الجعفي، والحديث حسَّنه الألباني في «ظلال الجنَّة»: (27/1)، وقال: «إسناده ثقات غير مجالد، وهو ابن سعيد؛ فإنَّه ضعيف، لكن الحديث حسن، له طرق أشرت إليها في «المشكاة» (177)، ثمَّ خرجت بعضها في «الإرواء»».



وضمن هذا المعنى يقول ابن القيِّم رحمه الله: «وكلُّ هذه الكتب المتضمِّنة لمخالفة السُّنَّة غير مأذون فيها، بل مأذون في مَحْقِها وإتلافها وما على الأمَّة أضرّ منها، وقد حَرَقَ الصَّحابة جميعَ المصاحف المخالفة لمصحف عثمان لِمَا خافوا على الأُمَّة من الاختلاف، فكيف لو رأوا هذه الكتب الَّتي أوقعت الخلاف والتَّفرق بين الأمَّة؟!»(9).

ويقول أبو القاسم الأصبهاني: «ثمَّ من السُّنَّة: ترك الرَّأي والقياس في الدِّين، وترك الجدال والخصومات، وترك مفاتحة القدريَّة وأصحاب الكلام وترك النَّظر في كتب الكلام وكتب النُّجوم، فهذه السُّنَّة الَّتي اجتمعت عليها الأئمَّة»(10).

❖ أمَّا إذا كان نوع العلم في كتبهم ومصنَّفاتهم ممتزجًا بين الحقِّ والباطل من الكتب الأصول، فإنْ كان طالب العلم فاقدًا لأهليَّة النَّظر، لا يقتدر على التَّمييز بين المزوج، ولا يعرف حدود الحقِّ من الباطل؛ فحكمه ترك النَّظر ـ أيضًا ـ في هذه المصنَّفات والكتب خشيةَ الوقوع في تلبيساتهم وتضليلاتهم.

وأمَّا إن كان طالب العلم النَّاظرُ فيها متشبِّعًا بالعلم الشَّرعيِّ الصَّحيح، ويملك آلة التَّمييز بين الحقِّ والباطل، والهدى والضَّلال، واحتاج إلى الاطِّلاع عليها؛ إمَّا لدراستها وتحقيق صوابها من خطئها، وإمَّا للردِّ على ما تتضمَّنه من انحرافٍ وزيغٍ وخرافةٍ، فَلَهُ أن يُقبِل عليها، ويَقْبَل الحقَّ من أيِّ جهةٍ كان، فقد كان من عدل سلفنا الصَّالح قَبول ما عند جميع الطَّوائف من الحقِّ ولا يتوقَّفون عن قبوله، ويردُّون ما عند هذه الطَّوائف من الباطل، فالموالي منها والمعادي سواء، إذ لا أثر للمتكلِّم بالحقِّ في قبوله أو رفضه.

وفي هذا السِّياق قال ابن القيِّم رحمه الله: «فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحقِّ حيثُ كان، ومع من كان، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، وردَّ الباطل مع من كان، ولو كان مع من يحبُّه ويواليه؛ فهو ممَّن هُديَ لِمَا اخْتُلِف فيه من الحقِّ»(11).

وعليه، فلا يجوز الإحالة على كتب المبتدعة ومصنَّفاتهم إن كان ضررها يماثل نفعها أو أعظم منه، بل الواجب التَّحذير منها وهجرها.

أمَّا إن كان نفعها أعظم من ضررها؛ فله أن يحيل عليها في البحوث والمقالات مع بيان ما حوته من شرٍّ أو فسادٍ إن أمكن، أو تنبيه على جوانب ضررها ولو في الجملة قصدَ الاحتراز منها على حدِّ قولهم: «اجن الثِّمار وألق الخشبة في النَّار».

وفي هذا المعنى من تحصيل النَّفع بمن فيه بدعة يقول ابن تيمية رحمه الله: «فإذا تعذَّر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلاَّ بمن فيه بدعة مضرَّتها دون مضرَّة ترك ذلك الواجب، كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرًا من العكس، ولهذا

(9) «الطُّرق الحكميَّة» لابن القيِّم (233 ـ وما بعدها).

(10) «الحجَّة في بيان المحجَّة» للأصبهاني (1/252).

(11) «الصَّواعق المرسلة» لابن القيِّم (2/516).

كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل»[12].

هذا، ولا يُقال في حقِّ هذه المصنَّفات: «خذ الحقَّ منها واترك الباطل» مطلقًا إلاَّ من كان محصَّنًا بالعلم الشَّرعيِّ النَّافع، قادرًا على محاصرة كتب أهل البدع المخالفين لمنهج أهل الحقِّ، وتطويق آرائهم وشبهاتهم، حفظًا لعقيدة المؤمنين من الفساد العقديِّ، وحمايةً لقلوبهم من الشُّبه والتَّلبيس، وصيانةً لعقولهم منها، علمًا أنَّ مشروعيَّة ترك النَّظر في كتب المخالفين لمنهج أهل الحقِّ إنَّما تندرج تحت قاعدة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، الَّتي تُعدُّ من أهمِّ أسس هذا الدِّين وقواعده، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

في حكم إخراج القيمة في كفَّارة اليمين، وفي صحَّة إعطائها لمسكين واحد

السؤال:

هل يجوز إخراج القيمة في كفَّارة اليمين؟ وهل يجوز إعطاؤها لشخص واحد؟

الجواب:

ما عليه جمهور أهل العلم أنَّه لا يُجزِئ في كفَّارة اليمين إخراجُ قيمة الطَّعام أو الكسوة، وبه قال مالك والشَّافعي وأحمد وغيرهم؛ لظاهر الآية في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ [المائدة: 89]، فقد خيَّر الله تعالى بين ثلاثة أعيان: الطَّعام، والكِسْوة، والعِتْق، فلو جازت القيمة لم ينحصر التَّخيير في الثَّلاثة؛ لأنَّه إذا ساوت قيمة الطَّعام قيمةَ الكسوة صارَا شيئًا واحدًا، ولم يَعُد للتَّخيير معنًى، وإن زادت قيمة أحدهما عن الآخر فلا يتحقَّق التَّخيير بين الشَّيء وبعضه، وإذا كان العِتق لا تُجزئ فيه القيمة؛ فتعيَّن ما ورد به النَّصُّ، فلا يحصل التَّكفير بغير ما تتضمَّنه، وعليه فلو أخرج القيمة لم يُؤَدِّ ما أمره الله بأدائه، ولم يخرج من عهدته.

أمَّا إخراجها بالطَّعام، فإمَّا أن يجد المكفِّر المساكينَ بكمال عددهم، أو يعجز عن ذلك، فإن وجدهم فلا يُجزئه أقلّ من عشرة؛ لأنَّ الله تعالى أوجب كفَّارته بإطعام عشرة مساكين، فإن كانوا دون العدد المطلوب وعجز عن إيجاد بقيَّتهم ردَّد على الموجودين منهم في كلِّ يوم حتَّى يستكمل العشرة، فإن لم يجد إلاَّ واحدًا ردَّد على ذلك المسكين تتمَّة عشرة أيَّام، وهذا إنَّما يكون في حالة العجز، أمَّا في حالة القدرة فلا يُجزئه إلاَّ كمال العدد.

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تسليمًا.

(12) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (28/212).

داعية الإصلاح
الشَّيخ عمر بن البسكري العُقْبِي

سمير سمراد
إمام أستاذ . الجزائر

مولده وتعلمه:

«هو: عمر بن محمَّد بن ناجي بن بسكري، ينتهي نسبه إلى بسكري الجدّ الرَّابع الَّذي أصبح لقبًا لعائلته، أصله من بلدة «زْرِيبَة الوادي» [هي الآن بلدية من بلديات: دائرة «سيدي عقبة»: ولاية «بسكرة»].

أمَّا مولده؛ فقد كان بسيدي عقبة سنة 1898 حسب سجلِّ دفتر الحالة المدنيَّة لسنة 1927.

وبمسقط رأسه نشأ وتربَّى، وحفظ القرآن الكريم، وزاول كلَّ تعليمه،... هو خريج جامع الفاتح عقبة ـ ولا سواه ـ، أيَّام كان عامرًا بالعلم والعلماء، وقد امتاز الشَّيخ عمر بين طلاَّب الجامع بالذَّكاء النَّادر والنُّبوغ المبكِّر»[1].

شيوخه:

«تتلمذ على مشائخ أجلاَّء منهم:

☼ **علي بن عثمان بن خلف الله** بالدَّرجة الأولى؛ «الَّذي كان أكثر ملازمة له، وكان بالنِّسبة إليه أستاذًا وأبًا لِمَا كان يخصُّه به من عناية ورعاية... تاركا في نفس صاحب التَّرجمة أثرًا عميقًا، وشعورًا خاصًّا نحو شخصيَّته طوال حياته»[2].

يقول الشَّيخ عمر: «لَمَّا منَّ الله عليَّ بدراسة فَنَّي العَرُوض والقَوافي، وأنا على حداثة الشَّباب، وكان من الَّذين ملكوا المشاعر بمننهم الحسيَّة، وحثُّوا الخواطر بما نفثوه فيها من روح نصائحهم الدِّينيَّة والأدبيَّة؛ **شيخي المصلح** علي بن عثمان الشَّريف، صاحب الأيادي العلميَّة على الجامعة العُقْبيَّة، نظمت فيه ما شاء الله من كلِّ عقد ثمين، والعمر إذ ذاك يناهز العشرين، وجمعته فكان ديوان «**العلويَّات**»»[3].

قلتُ: وقد كان حيًّا سنة (1938م)؛ فقد زار ـ في هذه السَّنة ـ وفدُ جمعيَّة العلماء منطقة

(1) ابن مبارك التواتي العقبي: «المصلح الشَّاعر عمر ابن البسكري»: [«البصائر»: السِّلسلة الرَّابعة، العدد (134)، (ص12).

(2) «الطُّرق الصُّوفيَّة والزَّوايا بالجزائر» لصلاح مؤيد العقبي (ص796).

(3) ابن مبارك التواتي العقبي: [«البصائر»: السِّلسلة الرَّابعة، العدد (134)، (ص12).

«بسكرة»، وعلى رأسهم الشَّيخ ابن باديس؛ وقصدوا «إلى محلِّ الشَّيخ علي بن عثمان معتمد جمعيَّة العلماء ببلدة سيدي عقبة... »[4].

☼ ثمَّ **الهاشمي بن مبارك**، «هو العلاَّمة المربِّي التَّقي المخلص الشَّيخ الهاشمي بن مبارك بن محمَّد الشَّريف العقبي، ولد سنة (1882م)... أخذ التَّعليم الابتدائي بأحد مكاتب بلدة «سيدي عقبة»، ثمَّ التحق بالمسجد الجامع الَّذي كان يعجُّ بالطلبة من جميع النَّواحي، حيث تلقَّى في مسجد الفاتح تعليمه الثَّانوي والعالي»، «وهو مؤيِّد للحركة الإصلاحيَّة الَّتي قام بها الشَّيخ الطَّيِّب العقبي... كما كانت له علاقة طيِّبة وخاصَّة بالشَّيخ عبد الحميد ابن باديس»، وقد جاء في صدر كتاب الشَّيخ ابن باديس إليه، قوله: «إلى الفقيه الثِّقة أخينا السَّيِّد الهاشمي بن مبارك، بارك الله فيه، آمين...»، انتصب للتَّدريس والوعظ والإرشاد متطوِّعًا في مسجد الفاتح، وذلك منذ سنة 1905 إلى وفاته في بلدته «سيدي عقبة» في: 1967/3/28م[5].

☼ **علي بن إبراهيم**، «وكان الشَّيخ ابن إبراهيم قد تخرَّج من معهد الهامل (قرب مدينة بوسعادة بالجزائر) ومن جامع الزَّيتونة، وقد امتاز بتعمُّقه خاصَّة في علوم الفرائض والنَّحو والفقه»[6] «ولد بمدينة «سيدي عقبة» سنة [1868م]، درس بمسقط رأسه، ثمَّ ارتحل إلى جامع الزَّيتونة، ومنه عاد إلى بلدته، حيث شرع في التَّدريس بها، ثمَّ انتقل إلى بسكرة، توفي حوالي سنة 1921م»[7].

☼ **البشير بن الصَّادق**: ولد ببلدة «سيدي عقبة» سنة 1844، وفيها كانت نشأته ودراسته الأولى، سافر إلى «نَفْطَة» بالجريد التُّونسي لإتمام دراسته، فأقام بها مدَّة اثني عشر عامًا، «وكان من رفاقه من الطُّلاَّب في ذلك العهد الشَّيخان؛ عالم المنقول والمعقول **الشَّيخ المكِّي بن عزُّوز، وعثمان بن المكِّي الزَّبيدي التُّوزري** رحمهما الله»، عاد إلى «سيدي عقبة»، وتفرَّغ للتَّدريس بمسجد عقبة بن نافع مدَّة تزيد على الخمسين سنةً تخرَّج عليه كثيرون، منهم: «علي ابن إبراهيم ـ المتقدِّم الذِّكر ـ، علي بن عثمان ـ لعله: «بن خلف الله»؛ المتقدِّم الذِّكر ـ، ... »، توفي سنة 1928م[8].

☼ **السَّعيد الخالدي**، وغيرهم»[9].

وأزيدُ على هؤلاء:

☼ الشَّيخ: **الصَّادق بن محمَّد بن الهادي [بلهادي]**: الموظَّف بمحكمة سيدي عقبة ابتداءً من سنة

(4) «البصائر»: السِّلسلة الأولى، العدد(98) (ص6).

(5) جريدة «النصر»: 2 مارس 1987م ـ ص7/ «من تاريخنا الثَّقافي: الهاشمي بن مبارك العقبي»/ الأستاذ سليمان الصيد.

(6) «شاعر الجزائر: محمَّد العيد...» لأبي القاسم سعد الله (ص22 ـ 23).

(7) انظر: محمَّد بن سمينة: «محمَّد العيد... دراسة تحليلية لحياته» (ص9)/ وصلاح مؤيد: «الطُّرق الصُّوفيَّة والزَّوايا» (ص792).

(8) صلاح مؤيد: «..الزَّوايا بالجزائر» (ص674 ـ 676).

(9) ابن مبارك التَّواتي العقبي: «البصائر»: السِّلسلة الرَّابعة، العدد (134)، (ص12).

1920م، إلى 1930م؛ حيث فصل عنها، ليعيَّن إمامًا بمسجد عقبة، ومدرِّسًا للطُّلاَّب فيه، ولد سنة (1869م)، وتوفي سنة (1939م) ببلدة «سيدي عقبة»، والغالب على الظَّنِّ أنَّه هو «مدرِّس البلدة» الَّذي عارضَ المصلحين ومنع الشَّيخ ابن باديس من إلقاء درسه بالجامع، وقد اشتدَّ عليه بعضُ المصلحين وهاجموه بعنفٍ؛ حتَّى وصفوه بـ «المدرِّس الأعمى»، انظر: «صدى الصَّحراء» [(العدد11)/ 1 مارس 1926م، (ص2)][10]؛ وذكَرَ له هذه التَّلمذة على هذا الشَّيخ، أحدُ الكتَّاب لمن أنصار الطُّرق! في مَعرض الانتقاد عليه!!؛ قال: «وإن كنَّا عرفناك، قرأت علم البيان على الأستاذ الضَّرير... »، وقد انتقد عليه عنوان مقالته المتسلسلة «**الأمراض الفاشية في الإسلام**»[11]؛ على أنَّ الَّذي بلغ إليه عقلُ هذا المنتقِد! أنَّ الإسلام لا أمراض فيه؟؟... إلخ.. إلخ[12].

«درس على جميعهم في رحابه وحول عرصاته على طريقة التَّعليم المسجدي السَّالف المعهود»[13]، «طمحت نفسه إلى الشِّعر والأدب؛ فضرب بسهم وافر فيهما، فقرض الشِّعر، وكتب النُّصوص وتدرَّب على أساليب الدَّعوة والإرشاد وفنون الخطابة والمحاضرة»[14].

وقد وُفِّقَ الشَّيخ عمر وبرز لاسيما في علوم اللُّغة والبلاغة، واشتهر بقرض الشِّعر وإنشاء القصائد في المناسبات؛ ولذلك صار ينعتُ في الصُّحف، ويقدَّم في المجالس؛ بأنَّه: «**النَّابغة اللُّغوي الشَّيخ عمر بن البسكري أحد الشُّعراء المفلقين** وألقى هاته الخطبة... ثمَّ أردفها بقصيدة» ««سيدي عقبة» عبد الغني بن رابح العقبي»[15].

✍ نشاطه وتعليمه:

«تصدَّر الشَّيخ عمر لتعليم النَّاشئة في الكتاتيب بسيدي عقبة، واقتداءً بشيوخه تطوَّع لطلاَّب العلم في الجامع بتقديم دروسٍ في البلاغة معتمدًا كتاب «جواهر البلاغة»، وفي النَّحو «ألفيَّة ابن مالك»، وفي الأدب والشِّعر نصوصًا مختارة، وقد جلس أمامه من طلبة العلم من كان يكبره سنًّا، فهم في حلقة الدَّرس تلاميذه، وفيما بعد إخوانه وأصدقاؤه، منهم: مصمودي محمَّد، الحاج عبَّاسي بلقاسم، كيحل عبد الحفيظ، إسماعيل العابدي، حمزاوي الأزهري، شاذلي عبد الغني، هامل الأخضر، أحمد رضا حوحو»[16].

---

(10) صلاح مؤيد: «..الزَّوايا بالجزائر» (ص746 ـ 750).

(11) نشرت في «الشِّهاب» على أجزاء؛ أوَّلها في (جزء رجب 1352هـ/ نوفمبر 1933م/ ص475 ـ 480).

(12) «النَّجاح»: العدد (1559): 15 محرم 1353هـ/ 29 أفريل 1934م/ ص3.

(13) ابن مبارك التواتي العقبي: «البصائر»: السِّلسلة الرَّابعة، العدد (134)، (ص12).

(14) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (22/2).

(15) «النَّجاح»: عدد (670): 18 جمادى الثانية 1347هـ/ 28 نوفمبر 1928م/ ص3/ (احتفال باهر بمحسن كريم).

(16) ابن مبارك التواتي العقبي: «البصائر»: السِّلسلة الرَّابعة، العدد (135)، (ص12).

انضمامه إلى جماعة المصلحين، والتفافُهُ حول زعيمهم:

«اتَّصل بالدَّائرة الفكريَّة الَّتي بدأ يتَّسع نطاقها في بسكرة وضواحيها تحت قيادة الدَّاعية الكبير الشَّيخ الطَّيِّب العقبي[17]، فنمَّى فيه حبَّ العلم والمعرفة، وتدرَّب على أساليب الدَّعوة والإرشاد، وفنون الخطابة»[18].

ـ ويبدو أنَّه تكوَّنَتْ جماعة إصلاحيَّة، في بلدة «سيدي عقبة»، تأثَّرت بالدِّعاية الجريئة الَّتي بثَّها العلاَّمة الشَّيخ الطَّيِّب العقبي في المنطقة، وكان من ضمنها صاحبُ التَّرجمة، وشيخه «علي بن عثمان» وغيرهما من الشُّيوخ والشَّبَاب النَّاهض، والسَّادة الأفاضل؛ وكأنَّ أحد الكتَّاب من «واد الزناتي» من أنصار الطُّرق والبدع! عَنَاهم على وجه الخصوص وغيرَهم من المصلحين على وجه العموم، إذْ كتب في «النَّجاح» [العدد (1172): 10 صفر 1350هـ/ 26 جوان 1931م/ (ص2)] مقالاً ملأه طعنًا وسبابًا، عنون له بـ: «**لقد هزلت**»، وصفهم فيه بـ«الطِّيش» «وينسبون أنفسهم الشَّيطانيَّة إلى العلم والاجتهاد وما هم بقادرين على معرفة الفرائض العينيَّة، بل وهم جاهلون معنى لفظي العلم والاجتهاد؛ فشكَّلوا منهم جمعيَّة على ما بلغنا وانتشروا بأرجاء بلدانهم ليهدوا النَّاس إلى السُّنَّة القويمة...! فإذا بهم مرقوا من الدِّين»، «يتطاولون على أعراض الشَّخصيَّات البارزة في سجلِّ التَّاريخ»، «وينبشون قبور الأموات والأولياء بسبِّهم وشتمهم» «ويجترئون على نفي الكرامة والولاية من أصلها» إلخ..

ـ فقامت هذه الجماعة الصَّالحة المصلحة، فنشروا: «**احتجاج ودفاع ـ من سيدي عقبة إلى جريدة النَّجاح...!!! ـ**» في جريدة «البلاغ» [العدد (220): 22 ربيع الأول 1350هـ/ 7 أوت 1931م/ (ص2)]:

«إنَّنا الواضعين خطوط أيدينا أسفله قد تأثَّرنا تأثيرًا كليًّا من المقال الَّذي رأيناه بجريدة «النَّجاح»... أبرزه كاتبه بإمضاء [نصوح]! وإنَّه بنفس الأمر لعدوٌّ للإسلام والمسلمين، غاشٌّ لهم، وكيف لا يكون عدوًّا للإسلام والمسلمين من يطعن في علماء الشَّريعة المطهَّرة الذَّابِّينَ عنها والمتمسِّكين بأصلها وفروعها... وهو أكبر الغاشِّين، رأى الأمَّة اجتمعت على أمر دينها فأراد تفرقتها وتمزُّقها، فالأمَّة اليوم قد انتبهت لمكائد الكائدين ومكر الماكرين وعرفت أنَّ صراط الله المستقيم واحد، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ [الأنعام: 153].

الإمضاءات:

وأقتصر على بعضهم؛ ومنهم: مَنْ تقدَّم ذكرهم في شيوخ وتلاميذ الشَّيخ عمر... مكِّي

(17) «سيدي عقبة» مسقط رأس الأستاذ العقبي الَّتي اشتهرت باشتهاره/ «البصائر»، العدد (34) (ص6).

(18) ابن مبارك التواتي العقبي: «البصائر»، السِّلسلة الرَّابعة، العدد (134)، (ص12).



إسماعيل[19]، ... **شاذلي عبد الغني، حمزى[؟] الأزهري، ... ابن خلف الله علي بن عثمان، بسكري عمر بن البسكري، ...» اهـ.**

✍ الانتقال إلى «مدرسة الإخاء» في «بسكرة»:

«في سنة 1931 انتقل إلى مدينة بسكرة للتَّدريس بمدرسة «الإخاء» صحبة الشَّيخ محمَّد خير الدِّين، والشَّيخ بلقاسم الميموني، والشَّيخ الطَّرابلسي القراري»[20].

ـ وقد نشرت «النَّجاح» في عددها (1358) (ص3) «قصيدة غرَّاء» للشَّيخ عمر، ألقاها «بنادي الاتِّحاد إثر انتهاء الشَّيخ ابن باديس من المسامرة»، ولَقَّبَهُ محرِّر الجريدة بـ: «**شاعر الصَّحراء**».

✍ نشاطه ضمن «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»:

«حين تأسَّست جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين في سنة 1931 لبَّى دعوتها؛ فأصبح من أعضائها العاملين ومن الدُّعاة النَّاطقين باسمها والعاملين لنشر مبادئها»[21].

(19) وصفه الشَّيخ الطَّيِّب العقبي بقوله: «صديقنا الودود ومحبُّنا الفاضل السَّيِّد (مكِّي إسماعيل) [وهو: ابن فضيلة الشَّيخ (مكِّي محمَّد بن أحمد بن إبراهيم) قاضي محكمة بلدتنا «سيدي عقبة»/ [«في عائلة الإصلاح»: «البصائر»، العدد (10)]

(20) ابن مبارك التواتي العقبي: «البصائر»: السِّلسلة الرَّابعة، العدد (134)، (ص12).

(21) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (22/2).

ـ بعد أن فشلت مكيدة الطُّرقيِّين من العليويِّين وغيرهم للاستيلاء على الجمعيَّة، خرجوا منها، وناصبوها العداء، واشتعلت الحرب بين الفريقين، فكان من كتابات المصلحين العلميَّة، الخالية من التعرُّض للأشخاص، كتابة الشَّيخ عمر، الَّتي عنونها بـ «**سوء التَّفاهم وأثره على الوحدة الإسلامية/أو: المناظرة بين المصلح والمحافظ**» [يعني به الطُّرقي!]»[22].

ـ امتدحها «الفتى القبائلي» هو: الفضيل الورتلاني بقوله: «...فقد عرفنا علماءنا النَّاصحين المرشدين ـ والحمد لله ـ بواسطة كتابتهم... أمَّا ما جعله المغلطون ذريعةً لبذر الشِّقاق والنِّفاق ممَّا تقدَّم ذكره وغيره من ذلك الطراز؛ فقد كتب فيه أولئك العلماء بما يشفي الغليل ويريح العليل وأنهوا الكلام بالنَّصِّ والدَّليل، ولم يخلوا بالموضوع لا بالكثير ولا بالقليل، فحسبك ما دبَّجه أخيرًا يراع العالم المستدل والمطلع النَّاقل الشَّيخ عمر بن البسكري، فلقد بحث وأصاب، وبيَّن وأجاد، ونتمنَّى له الرُّجوع إلى الميدان لكشف ما بقي من ضعف الإسناد ويظهر سوء التَّفاهم من العناد»[23].

✍ في قرية «خليل» وادي أميزور ـ بجاية:

«اقتنع الأستاذ عبد الحميد بن باديس

(22) نشرت على ثمانية أجزاء؛ الأوَّل منها في (ج10، م8، جمادى الثَّانية 1351هـ/ أكتوبر 1932م/ ص504 ـ 510).

(23) «السُّنَّة»: العدد (5): 13 محرم 1352هـ/ 8 ماي 1933م/ (ص6 ـ 7). (التَّخليط والتَّغليط آفة في الدِّين والاجتماع...).

بمقدرته في الدَّعوة الإصلاحيَّة وكفاءته العلميَّة؛ فعيَّنه مرشدًا ومعلِّمًا في «مدرسة السَّعادة» بـ«خليل» بـ«وادي أميزور»، وهي قرية من قرى ولاية «بجاية»، في سنة 1936م»[24].

آتت دعوةُ الشَّيخ عمر وإخوانه ثمارَهَا في هذه القرية، الَّتي عاث فيها الاستعباد الفرنسي فسادًا، والتفَّ أهلُها حول دعوة الإصلاح، وانقادت للمصلحين؛ فانتقم «الاستعبادُ» وباغي الفساد، فـ«أقدم على طرد الشَّيخ عمر»، «وأنذره وقومه سوء المصير»، فغادرها...[25].

في مدينة «سطيف»:

«عيَّنه الأستاذ ابن باديس داعيًا ومعلِّمًا في مدرسة سطيف [مدرسة «الفتح»] سنة 1938م، فعلَّم فيها الصِّغار من الأبناء وقام بالدَّعوة الإصلاحيَّة في «نادي الإرشاد» الَّذي كان يحاضر فيه مرَّة في كلِّ أسبوع».

ـ قلت: هذا ما ذكره الأستاذ الحسن فضلاء، وتبعهُ على ذلك غيرُهُ! وبمراجعة صحيفة «البصائر»، و«الشِّهاب»، يتبيَّنُ أنَّ تعيين الشَّيخ في «سطيف»؛ محاضرًا في «نادي الإرشاد»، كان في سنة (1936م)، ودام على ذلك سنتين كما سيأتي، ليُعيَّنَ في مدينة «وهران»، معلِّمًا في مدرسة «دار الفلاح» ابتداءً من سنة (1938م)، كما سيأتي، ودليلٌ آخر؛ هو: أنَّ

(24) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (2/22 ـ 23).

(25) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (2/22 ـ 24).

الافتتاح الرَّسمي لـ «نادي الإرشاد»، كان يوم الأحد (16 فيفري 1936م)[26].

«وقد نشرت أهمُّ محاضراته على صفحات مجلَّة «الشِّهاب»؛ نشر سلسلة من المحاضرات الَّتي كان يلقيها في هذا النَّادي، العنوان العام لها: فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيدي»[27].

وكان مقصوده؛ هو: حثُّ الشَّباب المسلم على تلاوة القرآن وتدبُّره، وقد قال يخاطبهم: «أقبل على مأدبة الله... وها أناذا أشجِّعك بتقديم هذه الباقة المقتطفة من رياضه لتتقدَّم معي إلى الاقتطاف منه والورود من حياضه»[28].

ثناء الشَّيخ ابن باديس على نشاطه:

ـ كتب الشَّيخ عمر لـ «الشِّهاب» «**تهنئة، وشكر، واعتذار إلى هذه الصَّحيفة المخلصة**»؛ اعتذر فيه عن انقطاعه عنها «زهاء أربع سنين»، وقدم برهانه على إخلاصه لها، بأن بعث إليها بـ: «إحدى محاضراتنا الإرشاديَّة اللَّيليَّة» ـ قال معلقًا: ـ «نسبة إلى نادي الإرشاد وهي مستمرَّة إلى اليوم منذ سنتين، ولله الحمد من قبل ومن بعد»، وهي: «فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيدي: الإسلام دين المحبَّة»[29]، علَّقَ عليها ابن باديس بقوله: «**نشكر فضيلة الأخ على حسن ظنِّه بهذه**

(26) «البصائر»: العدد(8) (ص7).

(27) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (2/24).

(28) «البصائر»: العدد(9)، (ص4)

(29) «الشِّهاب»: ج12، م13، ذي الحجة 1356هـ/ فيفري 1938م/ (ص513 ـ 518).



الصَّحيفة... ونحن نعرف فضيلته من يوم عرفناه لا ينقطع عن الكتابة والتَّعليم والإرشاد، فإذا لم يكتب فهو يعلِّم أو يرشد فلم ينقطع ـ والحمد لله ـ عن الخير... ».

«استمرَّ في عمله هذا سنتين، كان من نتائجها ازدهار الحركة الإصلاحيَّة والتَّعليميَّة»، «لكن [الاستعبادَ] هو [الاستعباد] في كلِّ مكان؛ فقد أعاد الكرَّةَ وطرده من سطيف نهائيًّا»[30].

✍ الانتقالُ إلى مدينة «وهران»[31]:

«أقام بقسنطينة مدَّة بقدر ما شحن فيها طاقته، ثمَّ عيَّنه الشَّيخ ابن باديس» مُعلِّمًا في مدرسة «دار الفلاح» بمدينة «وهران».

ـ انضمَّ الشَّيخ عمر البسكري إلى معلِّمي مدرسة الفلاح [القديمة] في شارع (إميل دولور)، الَّتي كانت لبنةُ تأسيسها في سنة 1938م، بحضور الإمامين ابن باديس والإبراهيمي، «وقد عيِّن للتَّدريس معه؛ الشيوخ: الأمين القنطري، وعبد اللَّطيف القنطري، ومحمَّد جفال [التّبسِّي]».

قلتُ: بل عُيِّنَ الأوَّلاَن قبلهُ، ولم يَدُمْ مقامهما بوهران طويلاً، إلى أن حلَّ الشَّيخ عمر البسكري بها، والظَّاهر أنَّه اختير ليكون معلِّمًا ومرشدًا للجماعة، بعد مغادرة المذكورَين، ولحاجةِ أهل «وهران» لمن يخلُفُهما، ويقوم مقامهما!

(30) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (2/24).

(31) هذا الفصلُ ملخَّصٌ عن الحسن فضلاء: «المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر (القطاع الوهراني)» (3/47 ـ 50). بتصرُّف وزيادات.

ـ حلَّ بوهران سنة (1944م) الشَّيخ السَّعيد الزّمُّوشي مُعتمدًا لجمعية العلماء بوهران، ومديرًا لمدرسة الفلاح، وعيَّن الشَّيخُ ابنُ باديس «الشَّيخَ عمر» مساعدًا لهُ.

ـ وفي هذه المدَّة: تأسَّس مسجد الفلاح، في أكبر شارع من شوارع المدينة الجديدة (جوزيف أندريو) في الطَّابق الأوَّل، على أنَّ الطَّابق الأرضي خُصِّص لبناء أقسام المدرسة الجديدة، واحتفل بافتتاح المسجد في سنة (1947م) ـ قلت: الَّذي وقفتُ عليه: هو أنَّ الافتتاح كان في 15 جانفي 1950م ـ، وحضره الشَّيخ البشير الإبراهيمي الَّذي حثَّ النَّاس على مواصلة العمل الجدِّي لإكمال بناء المدرسة الجديدة، ولا يزالُ الشَّيخ عمر البسكري مع معلِّمين آخرين، في هذه المدرسة، تحت إدارة الأستاذ السَّعيد الزّمُّوشي:

ـ إلى أن افتتحت دار الفلاح الجديدة نهائيًّا في 10 أوت 1952م، وظهرت مدرسة مكتملة، أشرف على إدارتها أوَّلاً: الشَّيخ محمَّد بن فطيمة، ثمَّ كان على رأسها: الأستاذ الحسن فضلاء ابتداءً من السَّنة الدِّراسيَّة 1953 ـ 1954م.

ـ حضر افتتاح «الجناح الجديد» بالمدرسة: الشَّيخ العربي التّبسِّي، وألقى الأستاذ عمر البسكري قصيدة بهذه المناسبة، نشرتها «البصائر» [العدد (202) (ص5)]، تحت عنوان: «**انظر إلى الإسلام كيف يُجدَّد**»، أغلقت الفلاح والمدارس الأخرى بوهران؛ أثناء الثَّورة التَّحريريَّة، وَزُجَّ بمسيِّريها في السِّجن والمعتقلات إلاَّ من رحم ربُّك.

✍ **من نشاطاته وأعماله:**

«فتح محلاً تجاريًّا ليوهم الإدارة الاستعمارية من جهة، ويستغني عن مال الجمعيَّات أي: جمعيات مدارس «جمعيَّة العلماء» من جهة أخرى، وتطوَّع لدروس الوعظ والإرشاد في مسجدي «الفلاح»، و«الحمري» علاوةً على مشاركته الفعَّالة في كلِّ الاحتفالات الَّتي تُقام بسبب تدشين المدارس والمساجد في كلِّ العمالة الوهرانيَّة؛ من «الشلف» شرقًا إلى «مغنية» غربًا، ومن «تلمسان» جنوبًا إلى «مستغانم» شمالاً، ودام على هذا العمل الدَّؤوب إلى أن أحرزت الجزائر على استقلالها»[32].

- وكانت مشاركاته في تلكم الحشود والجموع الوافدة؛ وهي «أعراس الأمة» كما سمَّاها الإمام الإبراهيمي، إمَّا بدَرْسٍ يُلقيه في أحدِ مساجدِ أو جوامعِ تلكم المحلة المُضيفة، وإمَّا بإلقاء قصيدٍ رنَان، وشعرٍ بالحِكَمِ مُزْدَان، وهو الغالبُ عليه، والميدانُ المفضَّلُ لديه!

✍ **انتصارُ الإصلاح بـ «وادي ارهيو»:**

- وأقتصر في هذا المقام على قطعةٍ من قصيدِهِ، بمناسبة الاحتفال الكبير الَّذي أقيم لافتتاح جامع ومدرسة «وادي ارهيو»؛ ولا بأس أن أقدِّم بمقدِّمة عن ظهور الإصلاح وانتصاره في هذه المدينة وما حواليها:

يحدِّثنا الأستاذ الحسن فضلاء، يقول: «كانت مدينة «وادي ارهيو» رَدْحًا من الزَّمن مسرحًا للطُّرقيَّة بجميع أنماطها (العلوية، والهبرية، وزاوية بن عابد المعسكرية)، ووَكْرًا للدَّروشة والخرافات والوثنيَّة، تجاورها «مَزَارة سيدي عابد» الَّتي هي على مقربة منها ببضعة أميال شرق المدينة، وكانت غير معروفة إلاَّ بشكلها وقُبَّتها، أمَّا الآن فهي معرَّفة بلافتة وضعت على حافتي الطَّريق تحدِّد معالمها وحرمها، وقد كتب عليها «مَرْجَة سيدي عابد»، تلك هي المزارة الَّتي دمَّرناها في عهد الإصلاح وكشفنا فضائحها، وأبطلنا الرِّحال الَّتي تُشدُّ إليها بما كُتب عنها من مقالات متتابعة في جرائد جمعيَّة العلماء، وكانت هذه الطُّرق المشار إليها تجتمع وتتَّفق لتقيم في كلِّ عام «زردة» أو مهرجانًا بلغة اليوم، وفي هذه المرجة - إن صحَّ التَّعبير - أو البلقعة تُذبح الذَّبائح لغير الله، وتشدُّ إليها الرِّحال وتُقام فيها الأفراح والخُزعبلات والأباطيل في بلقعتها وما جاورها من هضاب وتلول جرداء، وشِعاب ينتشر فيها الفسق وتغدق فيها الخمور بمختلف أصنافها، ويتجلَّى في رحابها الرَّقص المتعدِّد الأنماط، والانحلال الأخلاقي بأبشع مظاهره، يدوم المهرجان ثمانيَّة أيَّام؛ ثلاثة أيَّام منها تُباع فيها كلُّ المحرَّمات ببركة سيدي عابد، وفي تلك البقعة يجتمع الرِّجال والنِّساء والشَّباب والشَّابَّات، فتضرب الخيام وأشباه الخيام، بحيث ترى ملاءات النِّساء أحيانا وقد ضمَّت لبعضها لتقيم ستارًا شفَّافًا على جماعات من الرِّجال والنِّساء وهم على موائد الخمور أو على فراش الفسق والدَّعارة، وهكذا كانت «مرجة سيدي عابد» تزخر بالباطل والمجون! واختفى أثر

(32) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (2/25).



ذلك حينًا من الدَّهر بفضل دعوة الإصلاح، وعادت اليوم إلى الظُّهور[33]، ولعلَّها بطريقة عصريَّة متطوِّرة!! أمَّا حكومة الاستعمار فقد كانت مشجِّعة لهذه المآتم بالحضور والمال والتَّدعيم والأمن والتَّأييد المطلق»، وبعد أن أشاد بدور شعبة جمعيَّة العلماء في «وادي ارهيو» وإخوانهم من العلماء والوعَّاظ، ذكر ثمرة ذلكم الجهاد بتأسيس مسجد ومدرسة: «كان اليوم المقرَّر للتَّدشين هو يوم الأحد فاتح نوفمبر [1953م]، ولكن وجود النَّاس في المسجد أجبر الشَّيخ السَّعيد الزّمُّوشي ممثِّل جمعيَّة العلماء في عمالة وهران على إلقاء درس في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ الآية [التَّوبة: 18] مساء السَّبت بعد صلاة المغرب، ثمَّ صلَّى النَّاس العشاء، **وألقى الشَّيخ عمر البسكري درسًا آخر في تفسير سورة العصر**، وفي صبيحة الأحد على التَّاسعة خرج النَّاس من رحاب المسجد وساحته قاصدين نقطة التَّجمُّع للسَّير صفوفا متراصَّة وبعد اكتمال الجمع تحرَّك الحشد، وفي مقدِّمته الأستاذ توفيق المدني والشَّيخ السَّعيد الزَّمُّوشي، تحفُّهم جماعة المعلِّمين بمدارس المدن الوهرانيَّة ومدينة الأصنام، كان الجميع يسبِّحون ويهلِّلون ويكبِّرون حتَّى وصلوا باب المسجد»[34].

(33) يريدُ الأستاذ الحسن فضلاء: زمن ما بعد الاستقلال!

(34) **في وادي ارهيو: بيت من بيوت الله يشاد**: «البصائر» السِّلسلة الثَّانية، العدد (248): 13 ربيع الأول 1373هـ/ 20 نفامبر 1953م، (ص4و8).

«وكان من المفروض أن تُلقى قصيدة الشَّيخ عمر البسكري الَّتي أعدَّها لهذا اليوم؛ لكنَّ الوقت قد ضاق عنها»، وقد نشرتها جريدة «البصائر» [العدد (248) (ص6)؛ قالت: «**القصيد الَّذي ألقاه(؟) الشَّيخ عمر البسكري السَّلَفِي في حفل مسجد وادي ارهيو**»]، ومن أبياتها:

بين داعي الهدى وداعي الهوان
بان لي الرشد ماثلا للعيان
أيها المسلم الغريب تقدم
وتعزز بعصبة الإيمان
واصدع اليوم بالذي كنت في أمـ
ـسك تخفيه خيفة الشنآن
ذهبت تلكم الزُّرود وولَّت وبكا
ها الشَّيطان للشَّيطان»[35].
إنَّ لله ذلك المسجد المعمور
لا للضرار والبهتان
قد بنيناه، بل بنينا قلاعًا
وهدمنا معابد الأوثان
......
سارعوا للشفاء بالعلم والدين
وإني أعيذكم من تواني

✍ اشتغالهُ بالتِّجارة!:

ـ وكان الشَّيخ عمر قد انقطع عن الميدان العلمي ـ فيما يبدو! ـ، وافتقدته الأوساطُ الدَّعويَّة، أو انحسر نشاطُهُ المعهود عنهُ قديمًا،

(35) «المسيرة الرَّائدة للتَّعليم العربي الحرِّ بالجزائر (القطاع الوهراني)» للأستاذ محمَّد الحسن فضلاء (3/104 ـ 107).

ويبدُو أنَّه خفَّف من تلكم العزلة - نوعًا ما! -، وعادَ يُلقي القصائد والمواعظ (المناسباتيَّة!)؛ فقد أثارَ أحدُ رجال الجمعيَّة من الجيل الجديد - الَّذين أظهروا حاجتهم للاستفادة من علم وتجارب الجيل الأوَّل من المصلحين - هذه القضيَّة؛ قال[36] عن احتفال افتتاح أكبر مدرسة في وهران (15 جانفي سنة 1950م): «أخذت الأريحية شاعرنا العبقري وخطيبنا المصقع وواعظنا الكبير الشَّيخ عمر البسكري الَّذي طالَما حُرمت الجزائر من قلمه السيَّال وقصائده الرنَّانة، واستولت عليه وعلى جماعة من أمثاله **العزلة عن هذا المجتمع**، ألا وهو المجتمع العلمي الَّذي هو جدير بأن يُسمَّى مجتمعهم؛ لأنَّهم هم السَّابقون الأوَّلون في هذه الحركة الَّتي هم بناة أساسها المتين، الَّذي لم تستطع أن تمسَّه يد الدَّسَّاسين بسوء... بفضل هؤلاء السَّادة الَّذين من جملتهم شاعرنا الملهم الَّذي جادت عبقريَّته بهاته القصيدة العصماء الَّتي يظهر فيها تأييده لمبدئه القديم وحبِّه لحركته الأولى **بعد أن أصبح كما وصفه رئيس جمعيَّة العلماء المحترم الشَّيخ الإبراهيمي في يوم هذا الحفل المشهود غارقًا في أوساخ التِّجارة**، وكان الشَّيخ عمر من جملة العلماء الَّذين اعتلوا منصَّة الخطابة مع رئيس جمعيَّة العلماء لكن لضيق الوقت لم تسمح له الفرصة بإلقاء قصيدته، وبعد انتهاء الحفل اتَّصلنا بالشَّيخ وقرأ علينا القصيدة؛ فرغبنا منه أن يسلِّمها لنا لتنشر في «البصائر» تعميمًا للفائدة، ورغبة منَّا في عودة الشَّيخ لهذا الميدان ليفيدنا من فكرته الوقَّادة، ونحن لا يسعنا إلا أن نشكره على هذه الرُّوح العظيمة» «معسكر - محمَّد المجاجي»، ومطلع القصيدة:

يا آل وهران الصيد
فرحي بما أبديتموه شديد

......

وهران قد ذكرتنا فاسًا وتُو
نُسَ وادكارُ الصالحات يفيد
يا رب نشكو من جراءة معشر
أدناهم في الموبقات مريد
شنوا علينا غارة من غير ذنـ
ـب غير أنَّا ديننا التوحيد
نصبوا العداء لنا فيا رب اكفنا
من شرهم إن شرهم ليزيد».

- ظهر اسمه في «قائمة الوعَّاظ لشهر رمضان/ عمالة وهران»، لِسَنَتَيْ (1373هـ/ماي 1954م) [«البصائر»: العدد (269)/ 27 شعبان 1373هـ/ 30أفريل 1954م، ص3] و(1374هـ/ أفريل - ماي 1955م) [«البصائر»: العدد (314) 22 شعبان 1374هـ/ 15 أفريل 1955م، ص7].

واعظًا في «مدرسة الحمري»، الَّتي كان يديرها وقتَهَا: الأستاذ «العربي سعدوني».

✍ آثارُهُ الشِّعريَّة:

- يحدِّثنا الأستاذ الحسن فضلاء؛ يقول: «وأذكر أنِّي كنت أزوره في متجره بوهران

(36) «من مآثر احتفال مدرسة «الفلاح» بوهران»/ «البصائر» السِّلسلة الثَّانية، العدد (107) (ص7).



عندما كنت مدير مدرسة «الفلاح»، فأطلعني في إحدى المرَّات على كرَّاس كبير الحجم يضمُّ عددًا من القصائد، وقد قرأ عليَّ بعضها...»[37]، وبالإضافة إلى ديوان شعره المخطوط المعنون بـ«**العلويات**» ـ المتقدِّم ذكره ـ، جمع في آخر حياته ديوانًا آخر، بعنوان: «**الوهرانيَّات**»، وله شعر كثير منشور في الجرائد الوطنيَّة[38].

نَزْعَتُهُ السَّلَفِيَّة:

ـ يقول ابن باديس وهو يُعَرِّفُ به: «لنا أخٌ في الله ببلدة الفاتح العظيم سيدي عقبة بن نافع، ممَّن يحفظون كتاب الله، ويتدبَّرونه، ويهتدون به، ويعملون على نشر هدايته، ويشاركون في العلوم الشَّرعيَّة والأدبية والعقليَّة، ويضربون في اللُّغة الفرنسيَّة بسهم؛ هو الشَّيخ عمر بن البسكري صاحب هذا المقال، وقد كان هذا الشَّيخ معلِّمًا للصِّبيان خاملاً، فهداه العلم ووفَّقه لمطالعة كتب السَّلف؛ فأصبح من أهل العلم العاملين وعباد الله الصَّالحين، وقد بيَّن لي في كتاب خاصٍّ ما طالعه من الكتب، وأنا أذكرها هاهنا **مُتَمَنِّيًا لِكُلِّ مُنْتَمٍ للعلم أن يكون طالِعًا أو عازمًا على مُطالعتها** قال: «وأمَّا توغُّلنا في العلم الصَّحيح السَّلفي؛ فهو ضالَّتنا المنشودة الَّتي ظفرنا بها وسعادتنا العظمى الَّتي أرجو بها من الله الفوز عند الله والزُّلفى، والَّتي نفثت في روعنا ـ والحمد لله ـ توحيدًا خالصًا من شوائب الشِّرك، وإيمانًا ناشئًا عن نظرٍ صحيح، ومنَ الكتب الَّتي طالعناها مطالعةَ تحصيل: «الإحكام» للآمدي، «بداية المجتهد»، «الاعتصام» للشَّاطبي، «منهاج السُّنَّة» وغيره من كتب الإمام ابن تيميَّة، «إعلام الموقعين» و«إغاثة اللَّهفان» وغيرهما للإمام ابن القيِّم، «الدّرّ النَّضيد» وغيره من كتب الشَّوكاني.

وغير هذا من كتب العلم الصَّحيحة بعدما طالعنا «الموطَّأ» و«صحيح البخاري» وبعض التَّفاسير الصَّحيحة، ولم يفتنا من مجلَّتكم الزَّاهرة بمجالس التَّذكير عدد واحد، فكم أفادتنا من علوم ـ أدام الله حياة منشئها للإسلام ـ، وهذا هو الأخ الَّذي نقدِّمه اليوم للقرَّاء، والله يتولَّى الجميع بالهداية والتَّوفيق»[39].

ـ ويُعَرِّفُ بهِ الشيخُ الإبراهيمي؛ فيقول: «الشَّيخ عمر بن البسكري داعيةٌ جهير الصَّوت بالإصلاح، كاتبٌ متين القلم في الدِّينيَّات، سديد الرَّأي فيها، قويّ الحجَّة في مباحثها، أكسبه ذلك قيامه على كتب الفحول من فقهاء السُّنَّة أمثال ابن تيميَّة وابن القيِّم والشَّوكاني، وهي كتب تربِّي ملكة البيان، كما تربِّي ملكة البرهان... **والشَّيخ عمر أَجْلَدُ دعاتنا وكتَّابنا على المطالعة والقراءة...** »[40].

غَيْرَتُهُ على وطنه:

ـ من أواخر ما كتبه الشَّيخ عمر: مشاركته في الجواب على الاستفتاء الَّذي عرضته جريدة

(37) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (2/27).

(38) ابن مبارك التواتي العقبي: «البصائر»، السِّلسلة الرَّابعة، العدد (135)، (ص12).

(39) «الشِّهاب»: الجزء10، المجلد8، غرَّة جمادى (2) 1351هـ/ أكتوبر 1932م.

(40) «الآثار» (1/367 ـ 368).

«المنار» لوهي جريدة سياسيَّة ثقافية...ا/ عدد (40): 25 رجب 1372هـ/ 10 أفريل 1953م/ ص1و4]، حول إمكانيَّة اتِّحاد الهيئات والأحزاب لحلِّ القضيَّة الجزائرية؟! وقد كانت رؤية الشَّيخ عمر، تمثِّلُ موقفَ جمعيَّة العلماء الَّتي ينتمي إليها ويعتقدُ مباديها، ولطول الجواب أقتصرُ فقط على خاتمته؛ وهو: «نداء إلى الشَّعب الكريم، أيُّها الشَّعب الَّذي ليس له والد يأويه، ولا مكان يحويه، ولا مورد علم عصريٍّ يرويه، ولا علم ينشره ويطويه، فأصبح بين اللَّكم والشَّتم وذلك لما أحاطت به سرادق اليُتم، قد أدَّبك الزَّمان، فما خان ولا مان، وهدَتْك التَّجَارِب إلى شتَّى المآرب، فلقد مضى أمس وما فيه، والماضي لا يمكن تلافيه.

غير مأسوف على زمن

ينقضي بالهم والحزن

تدرع للزَّمن الآتي ليكون لك خير مواتي، وابن نهضتك في دائرة دينك الحنيف وقوميَّتك المقدَّسة، واجعل شعارك قوله تعالى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾ [آل عمران: 103] وقول جدِّك العربي الأبيِّ:

على طلل الأجداد خطوا لكم مجدا

فلم أر شيئا غيره بكم أجدى» اهـ.

«كان الشَّيخ عمر بن البسكري عظيمًا في إيمانه ووطنيَّته وحبِّه وإخلاصه للجزائر، وكان شجاعًا يستسهل الصَّعب ويقذف بحياته في المخاطر؛ ألقى [الاستعباد] القبض على بَنِيهِ وكانوا فدائيِّين أثناء الثَّورة التَّحريريَّة، ويوم محاكمتهم في مدينة «باتنة»؛ جاء لحضور الجلسة ولَمَّا رآهم مقيَّدين خاطبهم بقوله: «لهذا أنجبتكم...!!»»[41].

✍ مأثرةٌ عظيمة:

- يقول الأستاذ الحسن فضلاء: «عند استقلال البلاد؛ تسابق النَّاس إلى اغتصاب الشّقق والفيلات والمحلاَّت الَّتي تركها الأوروبيُّون وفرُّوا بأرواحهم، ويوجد في حي «بُولَاَنْجي» (مرقص وحانة) لمعمِّر فرَّ لينجوَ بحياته، قال الشَّيخ لأولاده: أنا عازم على الاغتصاب، كما يغتصب النَّاس، فنهاه أولاده عن الإقدام على هذا العمل الشَّنيع غير القانوني، ولكنَّه تصامم عن سماع نصائحهم وأصرَّ على فعلته، وهم لم يعلموا قصده، كسر باب (الحانة والمرقص) واستخدم عمَّالاً وعاملات في تفريغ المحلِّ وتنظيف أرضيَّته، ثمَّ فرشها بزرابي ووقف عند الباب مؤذِّنًا لصلاة مكتوبة، فاجتمع مسلمو الحيِّ، وأثنوا على صنيعه وجرأته، واستحال المحلّ إلى مسجد كبير، تمَّ إنجازه وتوسيعه وبناؤه في نفس المكان، ويُعرف الآن بـ«مسجد أبي بكر الصدِّيق»».

✍ وفاتُهُ:

«توفي رَحِمَهُ اللَّهُ بسكتة قلبيَّة في مستشفى «كونيو» بوهران يوم 3 مارس 1986م، وكانت جنازته مشهودة»[42].

(41) ابن مبارك التواتي العقبي: «البصائر»: السِّلسلة الرَّابعة، العدد (135)، (ص12).

(42) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (2/25).



الإمتاع ببيان منهج الاتباع

عبد المالك بن مبروك

إمام خطيب. تيزي وزو

حـان الرَّحيـل فـودِّع الأحْبابـا / واذرف دُموعَـك بعْـدَهم تَـسْكابا

وإذا مَـرَرْتَ علـى الطّلـول فحيِّهـا / وسـل الـمقاعِدَ واطـرُق الأبْوابـا

إنَّ الفِـراق مـصيبة لكنَّهـا / قـدَرٌ عليـكَ فقـدِّم الأسْـبابا

بَـانَ الخليـط فـصار قلبُـك فارغـا / وغـدتْ ديـارُ الظَّـاعِنِين يَبابـا

إنَّ اللقـاء بمـنْ عرفـتُ لفِتْنـة / إذْ كـان عَـذْبا ثـمَّ صـار عـذابا

وتقـولُ أمِّـي يـا بُـني أراك مـا / تنفـكّ تركـبُ في الحيـاة صِـعابا

إنَّ المـسيلة والـسُّهوبَ مَـشُوقة / عُـدْ يـا بُنَـيَّ فقـدْ أطلْـتَ غِيابـا

مَـنْ مُبْلِـغٌ إخوانَنـا أنِّـي لـهُم / وجَّهـتُ في هـذا القـصيد خِطابـا

مِـسْكَ الخِتـام تظـلُّ ذكْـرى بينَنَـا / مِـنْ بعْـد أنْ طـال الـمُقامُ وطابـا

يـا طالبًـا عِلْـمَ الـشَّريعة والـهُدى / أخلِـصْ لربِّـك كـيْ تنـالَ ثوابـا

إنْ كُنْـتَ ترغـب في الجِنـان وحورها / حتـى تنـال كواعبًـا أترابـا

وترى الإلَه كما ترى شَمْسَ الضُّحى / لا حُـزْنَ فيهـا لا ولا أوْصـابا

فاعْمـلْ لـها مـا دُمْتَ في الدُّنيا أخي / ورُزقـتَ فيهـا صِـحَّةً وشـبابا

ولقـد قـرأتُ عـنِ العـذاب وهَوْلِـهِ / فَـوَدِدْتُ لَـوْ أَنِّـي خُلِقْـتُ تُرابـا

ورأيْـتُ تَقْـوى اللّهِ خَيْـرَ تِجـارةٍ / وأرى المعاصـيَ خَيْبَـةً وتبابـا

حـافِظ علـى الـصَّلَواتِ في أوقاتِها / مـن كـان عبـدا صـالحا مـا خـابا

بمَكَـارِمِ الأخْـلاق كُـنْ متحلِّيًـا / بـيْن العبـاد وحقِّـق الآدابـا

للْوالـدَيْن عليـكَ حـقٌّ لازمٌ / فَرضـاهُمَا لـك يفْـتَحُ الأبْوابـا

فهُما اللّذان عليك يا كَمْ ضحَّيَا ... وتحمَّلا لِحياتك الأوْصابا

أحْسِنْ إلى الجيران وَارْعَ حُقوقهمْ ... وعُدِ المريضَ ولا تخُنْ من غابا

وَدَعِ النَّميمة فهيَ تحلِقُ دينَنَا ... وَدَعِ الْمِراءَ ولا تكنْ مُغتابا

أفش السَّلَامَ وكُنْ كريمًا باسِمًا ... حُلْوَ اللِّسانِ ولا تَكُنْ سَبَّابا

وإذا اتَّجَرْتَ فكُنْ أمينًا صادِقًا ... واقْنَعْ برزْقِكَ لا تكُنْ نَهَّابا

وإذا دخلتَ السُّوق فاحذرْ شرَّهُ ... أكْثِرْ دُعَاءً لا تكُنْ صخَّابا

وَدَعِ المَعَازِفَ والغِناءَ وكُلَّ مَا ... يُلْهِي ويُثْقِلُ في المَعَادِ حِسابا

واحْفظ عُيُونَك لا تكونُ طليقةً ... نحْوَ الحرام فتجْلُبَ الأتْعابا

فإذا عَصَيْتَ ـ وكُلُّ عَبْدٍ مُذْنِب ـ ... فأنِبْ وتُبْ واسْتَغْفِر التَّوَّابا

فاللّهُ يغفِر كلَّ ذنْبٍ ما عدَا ... شِركًا بهِ وقضَى بذاكَ كِتَابا

لا تحلِفَنَّ بمَا سِواهُ وكذِّب الْـ ... أبْراجَ واحْذرْ أن تزورَ قِبابا

إنَّ اعْتِصامَكَ بالشَّريعةِ رحْمَةٌ ... وأرى التفرُّقَ نِقْمَةً وعذابا

واحْذَرْ هُديتَ مِنَ الكلام وأهْلِهِ ... فَهُمُ الألى تركوا الديارَ خرابا

جعلوا أرسْطو حُجَّة وكلامَه ... كالوحْي واتَّخَذُوا الهوى أرْبابا

إنَّ التَّصوُّفَ بدْعَةٌ خَلَفِيَّةٌ ... أطْرَى النَّبيَّ وألَّه الأقطابا

جعلوا الأناشيدَ السَّخيفة قربَة ... فغدا التَّديُّن طبْلَة ورَبابا!

فإذا أردتَ لِدين ربِّكَ نصْرَةً ... فاسْلكْ طريقًا مُخْلَصًا وصوابا

لا تخترعْ مِنْ عند نفسِك مَنْهَجًا ... وتظُنُّ أنَّك قد أصبت ثوابا

لا يقبلُ اللّهُ العِبادةَ مُطلقًا ... حتَّى توافقَ سُنَّةً وكِتَابَا

فالعِلْمُ قال الله قال رسولُه ... قال الصَّحابةُ لا تكُنْ مُرْتابا

زكَّاهُمُ الرَّحْمنُ في قرآنِهِ ... واخْتارهُم لنبيِّه أصْحابا

في تَوبةٍ ومُحَمَّدٍ والحَشْر والْـ ... فتْح المُظفَّر واقْرَءُوا الأحْزابا

العالِمون العامِلون بعلْمِهِمْ ... فَتَحُوا الدُّنَا وتجاوزوا الأحْقابا

قولُوا لِمَنْ سَبَّ الصَّحابةَ إنَّهُ ... كَالكَلْبِ ينْبَحُ في السَّماء سَحَابَا

أهلُ الحديث همُ الدُّعاة إلى الهُدى ... ورثوا النَّبيَّ فطيِّبوا الأنسابا

لسْنا نُكَفِّر حاكِمًا بذنوبه ... كلاَّ ولسْنا نقبَلُ الإرْهابا



لا تخرُجنَّ على الوُلاة فإنَّه   فِعْلٌ حرامٌ كَمْ أضَاع شَبَابَا
إنَّ الجهادَ عبادةٌ وفريضةٌ   اللّه أوجبَ فعْلَها إيجابا
لكنَّها بشرائطٍ وضوابطٍ   في فقهنا حتَّى تكونَ صوابا
يُفتي به أهلُ اجتهادِ شريعةٍ   لا تسألِ المُتحمِّسَ الصَّخَّابا
فعليك بالعلماء والزم غرزهم   تُفلح ولنْ تخشى بذاك عتابا
في كلِّ عصْر منْهمُ مجموعةٌ   تهْدي الورى وتوجِّه الطُّلاَّبا
وإلى النِّساء نصيحة أخويَّة   أنْ يستقمْن ويلتزمْن حجابا
إنَّ الحجابَ عبادة وفضيلة   وأرى التبرُّج فتنةً وخرابا
وإذا أردتِ من اللباس تمامَه   وكماله فلْتَلْبسي الجلِبابا
وإذا رأيتِ بأنَّ وجهَكِ فاتن   يُغري الرِّجال ويُذهب الألبابا
فلتتَّقي الرَّحمن فيهم واجعلي   بعض القُماش - إذا رغبتِ - نِقابا
ليس النِّقاب ولا السِّتار بواجب   لكنَّه يُستعملُ اسْتحْبابا
وإذا اضطررْت إلى الكلام لحاجة   بحضُورنا فتجنَّبي الإسْهابا
لسْنا نحرِّم صوتَها لكنَّهُ   إنْ جاوز الحدَّ المُباح أرابَا
وتَجنَّبي سُبُلَ الرِّجال وسُوقَهم   فالاختلاطُ يهيِّج العُزَّابا
لا تكْتفي بالمَظهريَّة والْزمي   خُلقَ الحيَاءِ وفصِّليه ثيَابَا
إذْ ليسَ يُجدي في الثِّمار نَضَارَة   وجَمَالُهُنَّ إذا فسَدْنَ لُبَابَا
أأخَيَّتِي إنِّي عليكِ لَمُشْفِقٌ   وأَخَافُ يَا أخْتَا عليكِ ذِئَابَا
أوْصى النَّبيُّ بكُنَّ عِنْدَ وفَاتِهِ   فأطاع شِعْري أمْرَهُ وأجابا
يا ربَّنا ارزق أهْلَ دينِك تَوْبَةً   حتَّى يكونَ لَنَا الدُّعاء مُجَابَا
واللّهُ ألطفُ بالوَرَى مِنْهُمْ بهمْ   وهُوَ الغفور لِمن أناب وتابا
لَمَّا رأيتُ العُرْفَ أصبح منكَرًا   وتفرَّقت سُبُلُ العباد شِعَابا
واسْتُبْعِدَ العلماءُ مِنْ عَلْيائِهم   والجاهِلون تسوَّرُوا المِحْرابا
أرسلتُ شِعْري كالبَيَان مُوَضِّحًا   حتى أبَدِّد حَيْرَةً وضَبابا
بنصائح مِنْ كلِّ رَوْضٍ زهرةٌ   لا أدَّعِي في ذلك اسْتِيعَابا
واخْترتُ بحْرًا كاملاً مُتَفَاعِلا   مُتفائِلا لأُحقِّق الإعْرَابا

بقـصيدة عـصماءَ تنـبُضُ حِكْمـةً — بائيَّـــةٍ تـــستوقِفُ الكُتَّابـــا

أبياتُهـــا منظومـــة كالعِقْـــد في — جِيـــدِ الخريـــدةِ غـــيَّظ الأتْرابـــا

قـــدْ لا تـــروقُ لبعْـــضِهم لكنَّهـــا — ســتُثيرُ عنـــد المُنْـصِفِ الإعْجابـــا

فـــإذا رزقـــتَ بنعمـــةٍ حَـــدِّث بهـــا — واحـــذر ريـــاءً واشـــكُر الوهَّابـــا

فالحمْـــــد للّه علـــــى توْفيقِـــــهِ — فهُـــوَ الـــذي رَزَقَ اللِّـــسَانَ خِطابـــا

ثُـــمَّ الـــصَّلاةُ علـــى الـــنَّبيِّ مُحَمَّـــدٍ — وأضِـــفْ إليْـــه الآلَ والأصْـــحابا

ودَّعْـــتُكُم والعـــيْنُ تَـــذْرِفُ دَمْعَهـــا — والحُـــزْن قطَّـــع مُهْجَتِـــي وأذابـــا

ودَّعْـــتُكُمْ بقـــصيدتي مُتفجِّعًـــا — حَـــانَ الرَّحيـــلُ فـــودِّع الأحْبابـــا

تربية الطِّفل على الأذكار النَّبويَّة

الجزء الأول

عثمان عبد الماجد السوداني
مرحلة الدكتوراه في كلية التربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

إنَّ من العبادات العظيمة الَّتي شرعها الله عزّ وجلّ لعباده، وبيَّنها النَّبيُّ ﷺ لأمّته: **ذكر الله** عزّ وجلّ، الَّذي يتضمَّن كلَّ الأدعية والأذكار الَّتي ثبتت عنه ﷺ؛ ليؤدِّيها المسلم في ليله، ونهاره، حلِّه وترْحَالِه، صحَّته ومرضه، وفي كلِّ شأنٍ من شؤونه.

لقد تضمَّنت هذه الأذكار جوانب تربويَّةً عظيمةً، فهي تزيد الإيمان، وتهذِّب الأخلاق، وتُطَمْئِن النَّفس، وتزكِّي الرُّوح، وتقوِّي البدن؛ ومن هنا فإنَّ تعليم هذه العبادة لأبنائنا، وتربيتهم عليها؛ ليقطفوا ثمارها اليانعة، ويعيشوا في ظلالها الوارفة يعدُّ من الأهداف التَّربويَّة المهمَّة للأسرة المسلمة، خاصَّةً في هذا العصر الَّذي كثرت فيه المغريات، وتعدَّدت سُبُل الانحراف، فهذا كلُّه ممَّا يستدعي مزيد الحرص والعناية بهذا الهدف النَّبيل.

ويأتي هذا المقال ليعرِّف بعبادة ذكر الله، وأهميَّتها، وما تضمَّنته من جوانب التَّربية، وأنواع الأساليب الَّتي تستخدم لتربية الطِّفل عليها، مع بيان البرامج العمليَّة، والخطوات التَّطبيقيَّة لهذا الغرض، وأسأل الله أن يكتب فيه النَّفع والفائدة.

أوّلاً ـ مرحلة الطُّفولة:

هي المرحلة الَّتي تبدأ من الولادة، وتنتهي بالبلوغ[1].

واختار بعض التَّربويِّين وخاصَّةً الباحثين في التَّربية الإسلاميَّة تقسيم مرحلة الطُّفولة إلى أربع مراحل وأطوار بناءً على النَّظر في الأدلَّة والتَّطبيقات الشَّرعيَّة في القرآن الكريم، والسُّنَّة المطهَّرة، وما نحاه الفقهاء المسلمون، وهذه المراحل هي: (الرّضاعة/ الحضانة/ التَّمييز/ المراهقة والبلوغ).

«وفي هذا التَّقسيم والمرحليَّة تركيز على أبرز معالم المرحلة، وتعيينها بأحد أبرز تلك المعالم؛ **فالرّضاعة** تركِّز على أهمِّ حاجات الطِّفل العضويَّة،

(1) حنان عطية الجهني: «**الدَّور التَّربوي للوالدين في تنشئة الفتاة المسلمة في مرحلة الطُّفولة**» (1/13).

وهي الرّضاعة وما لها من ظلال وآثار عميقة وبعيدة على الطّفل في السَّنتيْن الأوليين مِن عمر الطّفل، **والحضانة** تركّز على حاجة الطّفل النّفسيَّة إلى حِجْر يحتضنه، وأمٍّ تَحْنُو عليه وتبذل له الدِّفء العاطفيَّ والمحبَّة، ووسط يرعاه ويرحمه ويُؤويه، وهي من سنِّ الثَّالثة إلى سنِّ السَّادسة، **ومرحلة التَّمييز** تركِّز على النَّقلة العقليَّة، والنُّضج المعرفي الَّذي برز لدى الطِّفل وصار يغيِّر في واجباته ومسالكه، وفي أحكامه وعلاقاته، وهي من السَّابعة إلى الثَّانية عشرة تقريبًا، وهذا المنحى في التَّركيز على المعالم البارزة لا يعني إهمال الجوانب الأخرى، بل هو يعطي كلاًّ حقَّه وقدرَه من العناية في التَّربية الإسلاميَّة»[2].

ننتقل بعد هذا إلى بيان المقصود بالأذكار وأهميَّتها وفوائدها..

ثانيًا ـ عبادة الذّكر:

إنَّ الذِّكر بمعناه العامِّ يطلق ويراد به: جميع أنواع العبادات القلبيَّة والبدنيَّة مع أعمال اللِّسان فيشمل بعمومه التَّوحيد، والصَّلاة، والزَّكاة، والحجَّ، وقراءة القرآن، والدُّعاء، والتَّسبيح والتَّهليل، والتَّحميد، والتَّمجيد، والاستغفار، ومدارسة العلم الشَّرعي وغيرها من أنواع الطَّاعات الَّتي تقرِّب العبدَ إلى ربِّه؛ لأنَّها إنَّما تُقام لذكر الله وطاعته وعبادته، كما قرَّر ذلك أهل العلم، ومنهم النَّووي رحمه الله حيث قال: «اعلم أنَّ فضيلة الذِّكر غير منحصرة في التَّسبيح، والتَّهليل، والتَّحميد، والتَّكبير، ونحوها، بل كلُّ عاملٍ لله تعالى بطاعةٍ؛ فهو ذاكرٌ لله تعالى، كذا قال سعيد ابن جبير رضي الله عنه، وغيره من العلماء، وقال عطاء رحمه الله: «مجالس الذِّكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع وتصلِّي وتصوم، وتنكح وتطلِّق، وتحجُّ، وأشباه هذا»»[3].

وأمَّا الذِّكر بمعناه الخاص: فيُطلق على ما يجري على قلب العبد ولسانه، من الألفاظ المتضمِّنة الثَّناء على الله عزَّ وجلَّ بجميل أوصافه، وأسمائه، وأفعاله، وآلائه، وتمجيده، وتحميده، وتهليله، وتسبيحه، وتكبيره، وتلاوة آياته، ونحو ذلك ممَّا ورد التَّرغيب فيه، والحثُّ عليه بالآيات القرآنيَّة، والأحاديث النَّبويَّة على اختلاف الأحوال والمناسبات من غير غفلةٍ ولا نسيان، وهو المقصود عند الإطلاق هنا.

○ أهمِّيَّة عبادة ذكر الله:

إنَّ الأذكار الشَّرعيَّة، والأدعية النَّبويَّة لها منزلةٌ شريفة في الدِّين، ولا ريب أنَّ ذكر الله، ودعاءه هو خير ما أُمضيت فيه الأوقات، وصُرِفت فيه الأنفاس، وهو مفتاحٌ لأنواع الخيرات في الدُّنيا والآخرة.

وليس أبلغ ولا أوضح من المثل الَّذي ضربه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لحاجة الإنسان المسلم إلى الذِّكر، وذلك فيما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلِ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**»[4].

(2) عبد العزيز النغيمشي: «**علم النَّفس الدَّعوي**» (ص182).

(3) النَّووي: «**الأذكار**» (ص34).

(4) البخاري: «**الجامع الصَّحيح**» (6407).



وإنَّ أهميَّة الذِّكر لتتجلَّى واضحةً بالنَّظر إلى كثرة وتواتر نصوص الكتاب العزيز، والسُّنَّة المشرفة، وأقوال السَّلف الصَّالحين، والعلماء الرَّبَّانيِّين الَّتي تدلُّ على شرف عبادة الذِّكر، وعظيم أهميَّتها بما يصعب حصره، واستقصاؤه.

وقد جمع فوائد الذِّكر، وعوائده الطَّيِّبة المباركة: الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعدي رحمه الله في أبياتٍ بديعة، يقول فيها:

وكُن ذاكرًا لله في كلِّ حالةٍ
فليس لذكـر الله وقتٌ مقيَّدُ
فذكرُ إلهِ العرش سِـراً ومُعلناً
يزيلُ الشَّقا والهمَّ عنـكَ ويطرُدُ
ويجلبُ للخيـرات دنيـا وآجـلاً
وإنْ يـأتك الوسـواس يومـاً يشرِّدُ
فقد أخبر المختـار يوماً لصـحبه
بأن كثيرَ الذِّكر في السَّبق مُفردُ
ووصَّـى معـاذاً يسـتعيـنُ إلهَـه
على ذكره والشُّكرِ بالحُسن يعبُدُ
وأوصى لشخصٍ قد أتى لنصيحةٍ
وقد كان في حَمْل الشرائع يجهدُ
بـأنْ لا يزلْ رطـبًا لسـانُك هـذه
تعيـنُ على كلِّ الأمـور وتُسعِـدُ
وأخبر أن الذكـرَ غـرسٌ لأهلِه
بجنَّات عدْنٍ والمسـاكـنُ تُمهدُ
وأخبـر أن الله يذكـرُ عبـدَه
ومعْـه علـى كـلِّ الأمـور يُسدِّدُ
وأخبـر أن الـذكـرَ يبـقـى بجنـةٍ
وينـقـطـع التـكـليـفُ حـين يُخلَّدوا
ولو لـم يكـنْ في ذكـره غيـر أنَّه
طـريـقٌ إلـى حُـبِّ الإلـه ومُـرشِـدُ
وينـهـى الـفتـى عـن غـيبـةٍ ونـميمـةٍ
وعـن كـلِّ قـولٍ للديـانـة مُفسـدُ
لكـان لنـا حـظٌّ عـظيـمٌ ورغبةٌ
بكـثـرة ذكـر الله نِعـمَ الموحَّدُ
ولكـنَّـنـا مـن جـهْلِنـا قلَّ ذكـرُنا
كمـا قـلَّ مـنَّا للإلــه التعبُّدُ[(5)]

ثالثا ـ الأساليب التَّربويَّة لتربية الطِّفل على الأذكـار:

○ الأسلوب الأوَّل: القدوة.

يُعدُّ مبدأ القدوة من أهمِّ المبادئ الَّتي تقوم عليها العمليَّة التَّربويَّة بشكل عامٍّ، وهو يكتسب أهميَّةً بالغةً حين يتعلَّق الأمر بتربية الأطفال، وتنشئتهم؛ ذلك أنَّ حاجة النَّاس إلى القدوة نابعةٌ من غريزة تكمن في نفوس البشر أجمع، وهي: «**التَّقليد**» وهي رغبةٌ ملحَّةٌ تدفع النَّاس إلى محاكاة سلوك مَن فوقهم، ويرتقي التَّقليد بارتقاء المجتمع حتَّى يبلغ في التَّربية الإسلاميَّة ذروته من الوعي، والسُّموِّ، والهدف النَّبيل[(6)].

ويقصد بالقدوة: **تلك الشَّخصيَّة المؤثِّرة في جوانبها المختلفة، الَّتي يمكن للمتربِّي أن يسلك طريقها في التَّأسِّي والعمل.**

ولتحقيق معنى القدوة الحسنة؛ فإنَّه لابدَّ

(5) السَّعدي: «**المجموعة الكاملة للسعدي**» (4/175 ـ 176).
(6) عبد الرَّحمن النحلاوي: «**أصول التَّربية الإسلاميَّة**» (ص 257 ـ 258) ـ بتصرُّف.

من توفُّر أصولٍ ثلاثةٍ فيها[7]، وهي:

أولاً: الصَّلاح والاستقامة.

ثانيًا: حُسن الخُلُق.

ثالثًا: موافقة القول العمل.

وبالنَّظر إلى مفهوم القدوة السَّابق؛ فإنَّ القدوة قد تكون قريبةً أو بعيدةً، غائبةً أو حاضرةً، وكلَّما كانت الشَّخصيَّة مؤثِّرةً، ومشتهرةً؛ فإنَّ الاقتداء بها يكون أعظم، وأوَّل من يدخل في الجانب الإيجابي والمُثمر من ذلك هم: الأنبياء، والعلماء، والصُّلحاء، والمربُّون الأخيار.

«وهكذا فالنَّاس شديدو الرِّقابة للعلماء، والخطباء، والآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر، ورقابتهم لا تنحصر في العالم والخطيب نفسه، بل يرقبون نساءه، وأولاده، وأحفاده، ويتعلَّقون بأفعالهم، ويستدلُّون بسيرتهم وسلوكهم، والنَّاس ـ إلاَّ من رحم الله ـ يغلب عليهم الميل إلى التَّسويغ والتَّرخُّص بأدنى الشُّبهات»[8].

ويعظُم التَّأثير والاقتداء إذا كان التَّطبيق صعبًا، أو الوسط مخذِّلاً ومع ذلك يلتزمه المربِّي، فما أحرى أن يدفع ذلك المتربِّين إلى التَّمسُّك بتلكم المبادئ، والصَّبر عليها؛ ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يضرب لأصحابه وأمَّته أروع الأمثلة في التَّضحية، والشَّجاعة، والبذل، والسَّماحة، وحسن الخلق في أحلك الأحوال، وأشدِّها على النَّاس.

(7) صالح بن حميد: «**القدوة مبادئ ونماذج**» (ص12 ـ 28) ـ بتصرُّف.

(8) عبد الغني أحمد مزهر: «**خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة**» (ص99).

* دور القدوة في تربية الطِّفل على الأذكار النَّبويَّة:

إنَّ القدوة باعتبارها أداةً مهمَّةً في التَّربية والتَّعليم ـ كما تمهَّد ذلك فيما سبق ـ لَيُنتظر منها الأداء البنَّاء في سياق تحقيق هدف: تربية الطِّفل المُسلم على الأذكار النَّبويَّة، وذلك من خلال الأمور الآتية:

أوَّلاً: أنْ يحرص الأبوان، والمعلِّمون على التَّلفُّظ بالأذكار النَّبويَّة المتنوِّعة، وإسماعها للأطفال ليقتدوا بهم ويقلِّدوهم، وخاصَّةً الأذكار المتكرِّرة يوميًّا، كأذكار الصَّباح والمساء، وأذكار دخول المنزل والخلاء، والخروج منهما، وعند دخول المسجد والخروج منه، وأذكار الأكل والشُّرب، والسَّلام، والعطاس، والنَّوم والاستيقاظ، وغيرها ممَّا يتكرَّر كثيرًا، وقد تعلَّم بهذا الطَّريق الصَّحابة رضي الله عنهم الذَّين سمعوا من النَّبيِّ ﷺ أنواعًا من الأذكار في المناسبات المختلفة فنقلوها لنا وبلَّغوها، فحفظوا للأمَّة سنَّة نبيِّها ﷺ في هذا الجانب كما حفظوها في سائر أبواب الدِّين، ولله الحمد والمنَّة.

وممَّا يدلُّ على ذلك ما ثبت في «الصَّحيحين» عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «بِتُّ عند خالتي ميمونة رضي الله عنها **فقلتُ: لأنظرنَّ إلى صلاة رسول الله** ﷺ فطُرِحتْ لرسول الله ﷺ وسادةٌ فنام رسول الله ﷺ في طولها، فجعل يمسح النَّوم عن وجهه، فقرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران حتَّى ختم، ثمَّ أتى شَنًّا معلَّقًا فأخذه فتوضَّأ، ثمَّ قام يصلِّي، **فقمتُ فصنعتُ مثل ما صنعَ**، ثمَّ



جئتُ فقمتُ إلى جنبه، فوضع يده على رأسي، ثمَّ أخذ بأُذني فجعل يفتلها، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ صلَّى ركعتين، ثمَّ أوتر»(9).

فتأمَّل ـ يا رعاك الله ـ إلى هذا الاقتداء والمتابعة الدَّقيقة من ابن عبَّاس رضي الله عنهما للنَّبيِّ ﷺ.

ومن ذلك أيضًا ما رواه عبد الرَّحمن بن أبي بكرة رضي الله عنه أنَّه قال لأبيه: «يا أَبتِ إنِّي أسمعك تدعو كلَّ غداة: «اللَّهمَّ عافني في بدني، اللَّهمَّ عافني في سمعي، اللَّهمَّ عافني في بصري، لا إله إلاَّ أنت، اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من الكُفر والفقر، اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلاَّ أنت»، تُعيدها حين تصبح ثلاثًا، وثلاثًا حين تُمسي، فقال: إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يدعو بهنَّ، فأنا أحبُّ أن أستنَّ بسنَّته»(10).

وفي رواية عن مسلم بن أبي بكرة «أنَّه كان سمع والده يقول في دُبر الصَّلاة: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر، فجعلتُ أدعو بهنَّ، فقال: يا بُنيَّ أنَّى عُلِّمْتَ هؤلاء الكلمات؟ قلت: يا أبتِ سمعتك تدعو بهنَّ في دبر الصَّلاة **فأخذتُهنَّ عنكَ**، قال: فالزمهُنَّ يا بُنيَّ! فإنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يدعو بهنَّ في دُبر الصَّلاة»(11).

(9) متَّفق عليه: البخاري (4570)، مسلم (763).

(10) أبوداود (5090)، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (3/356).

(11) النسائي (5465)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (3/356 ـ 357).

ومن الشَّواهد في واقعنا المعاصر ما يحكيه أحد التَّربويِّين في تَجْرِبَتِه الشَّخصيَّة لذلك، فيقول الأستاذ خالد الشّنتوت: «منذ وعيتُ أذكر أنَّني أحفظ الأذكار التَّالية: أصبحنا وأصبح الملك للّه... [وذكر عدَّة نصوص من الأذكار والأدعيَّة ثمَّ قال]: هذه بعض الأذكار الَّتي حفظتُها عن ظهر قلبٍ، وما زلتُ أحفظها قبل دخولي المدرسة بعدة سنوات، وغالب معرفتي أنَّني لن أنساها ما حييتُ؛ لأنَّها منقوشةٌ في أعماق القلب، هذه الأذكار لم يُلقِّنها لي أحد، حتَّى والدتي لم تلقِّنِّي شيئًا منها، **إنَّما كنتُ أسمعها من والدتي منذ بدأتُ أسمع، وعقلتُها منذ بدأتُ أعقِل**...»(12).
انتهى كلامه.

فهذه أمثلةٌ شاهدةٌ من عمل المتقدِّمين، والمتأخِّرين على مدى فاعليَّة هذا الأمر في اقتداء الأطفال بمن حولهم في تعلُّم الأذكار النَّبويَّة.

ثانيًا: أن ينتبه المربُّون، ومن كان في محلِّ القدوة للأطفال للأذكار العارضة الَّتي لا تتكرَّر كثيرًا، وإنَّما تُشرع في مناسباتٍ، وأحوال مخصوصة، كأذكار السَّفر، والتَّهنئة، والتَّعزية، وزيارة المقابر، وحال الكرب، والغضب، وعند رؤية الهلال، ونزول الغيث، وعيادة المريض، وغيرها ممَّا ورد الشَّرع بمشروعيَّة الذِّكر فيه؛ فإنَّ تحرِّي هذه الأذكار المباركة ممَّا يُعمِّق في الأطفال أمر الصِّلة باللّه عَزَّوَجَلَّ، والمداومة على ذكره رغم تغيُّر الأحوال، والأزمان، والأمكنة، وهذا مقصدٌ تربويٌّ جليل،

(12) خالد الشنتوت: «**دور البيت في تربية الطِّفل المسلم**» (ص3 ـ 4).

وهو من ثمرات تربية الأطفال على ذكر الله عزوجل.

ثالثًا: أنْ يتوجَّه المربُّون، وأهل القدوة إلى أذكار الصَّلاة بمزيد العناية والاهتمام عند تعليمها الأطفال؛ وذلك لعِظَم شأن الصَّلاة، وجليل قدرها، فهي أعظم أركان الإسلام بعد الشَّهادتين، وهي عمود الإسلام، وقد أولى النَّبيُّ ﷺ تعليمها للصَّحابة مزيد العناية، فقال: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[13]، وصلَّى مرَّةً على المنبر في مسجده، فلمَّا قضى صلاته أقبل على النَّاس فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بي، وَلِتَعَلَّمُوا صَلاَتِي**»[14].

فحريٌّ بالمربِّين أن يعتنوا بتعليم الصَّلاة، وأذكارها، وأحكامها للأطفال بالتَّفصيل، مع مراعاة الرِّفق والتَّدرُّج، والاستمرار في ذلك، مع اصطحاب الأطفال إلى المساجد ما أمكن وحيث لا يترتَّب على ذلك مفاسد أو أضرار.

رابعًا: توجيه الأطفال إلى أعظم الذِّكر، وأفضله، وهو القرآن الكريم، فينبغي أن يخصِّص الأبوان، والإخوة الكبار ومن يقتدي بهم الطِّفل نصيبًا من أوقاتهم لتلاوة القرآن الكريم وحفظه وتسميعه؛ حتَّى ينشأ الأطفال في بيئةٍ تُعظِّم كتاب الله، وتهتمُّ بحفظه، وتلاوته، وتطبيقه، وبهذا ينخرط الطِّفل وينتظم في هذا السِّلك المبارك، ويندفع متحفِّزًا للمشاركة فيه، خاصَّةً إذا نوَّه أولئك المربُّون بمن يهتمُّ بالقرآن الكريم، وأوردوا للصِّغار النُّصوص الَّتي تُرغِّبهم في ذلك، ومن ذلك الحديث الَّذي يرويه عثمان بن عفَّان رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[15]، وحبَّذا أن تُعقد مجالس دوريَّة في البيوت، يوميَّة أو أسبوعية ويقوم عليها الأبوان وهم يستشعرون ما ورد في ذلك من الأجر والبركة فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[16].

خامسًا: أنْ يحرص المربُّون على ربط الأطفال بالمسجد؛ وذلك لما فيه من المصالح والفوائد التَّربويَّة العديدة، ومنها ما نحن بصدده من ربط النَّاشئة بعُمَّار المساجد من أهل الخير والصَّلاح، وهؤلاء أهلٌ للاقتداء، وتقديم الأسوة الحسنة لهؤلاء الأطفال.

سادسًا: الحرص على رفقة الطِّفل الَّذين يقتدي بهم ويلعب معهم؛ فإنَّ مِنْ أهمِّ ما يتأثَّر به الطِّفل هو جماعة الرِّفاق والأقران، ولهذا ينبغي للمربِّين أن يوجِّهوا أبناءهم لاختيار الصُّحبة الصَّالحة، وأن يبعدوهم عن رفاق السُّوء.

هذا ما يتعلَّق بالقدوة ودورها.

❍ الأسلوب الثَّاني: التَّدرُّج.

❋ خطوات التدرُّج:

يمرُّ التَّدرُّج التَّربوي بثلاث خطوات رئيسَة هي:

(13) البخاري (628).

(14) متفق عليه: البخاري (917)، مسلم (544).

(15) البخاري (5027).

(16) مسلم (2699).



أوّلاً: التّلقين، ثانيًا: التّعليم، ثالثًا: التّقويم.

وممّا يُمكن به تحقيق التّدرُّج في تربية الطّفل المسلم على الأذكار النبويّة ما يأتي:

أوّلاً: أن يُراعيَ المربِّي في تعليمه للأذكار النّبويَّة المتنوِّعة مبدأ التّدرُّج بحيث يبدأ بالأذكار الّتي تتميَّز بالقِصَر والاختصار فيما كانت فيه الأذكار متنوِّعة بين المطوَّل والمختصر، ومن ذلك مثلاً: أذكار النَّوم، فإنَّ من الأذكار الواردة فيه ما يأتي:

1 ـ عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا أراد أن ينام قال: «**باسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا**»، وإذا استيقظ من منامه قال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**» رواه البخاري (6324).

2 ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لاَ كَافِيَ لَهُ وَلاَ مُؤْوِيَ**» رواه مسلم (2715).

3 ـ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاَةِ، ثُمّ اضْطَجِعْ عَلَى شقِّكَ الأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَى مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتّ مِنْ لَيْلَتِكَ متَّ وَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلاَمِكَ**»[17].

فبالنَّظر إلى الأذكار المشروعة آنفًا عند النَّوم، فإنَّ المربِّي ينبغي له ـ مراعاةً لمبدأ التَّدرُّج ـ أن يبدأ في تعليم الطِّفل ما كان سهلاً ومختصرًا، ويترقَّى به شيئًا فشيئًا، فيعلِّمه الذِّكر الأوَّل مثلاً، وهكذا الثَّاني، فالثَّالث، وهكذا سائر الأذكار النَّبويَّة في المناسبات المختلفة.

ثانيًا: أنْ يتدرَّج المربِّي في تعليم الأطفال القرآن الكريم ـ وهو أفضل الذِّكر ـ، فينبغي أن يبدأ بتعليمهم قصار السُّور، وآية الكرسي، وخواتيم سورة البقرة ليحفظوها ويتحصَّنوا بها كما هو ثابتٌ في أحاديث أذكار اليوم واللَّيلة، ثُمَّ يترقَّى بهم لإتمام جزء عمَّ، وهكذا يتمّ حفظ الطِّفل للقرآن الكريم وإتقانه بسلاسةٍ وتدرُّج.

ثالثًا: أن يركِّز المربُّون ـ وخصوصًا الوالدان ـ على أسلوب: **التَّلقين** في تعليم الأذكار النَّبويَّة من حين تجاوز الطِّفل لمرحلة الرَّضاعة ودخوله في مرحلة الحضانة، بحيث يُتَدرَّج في تلقين الطِّفل للذِّكر، ومن هنا استحبَّ جمعٌ من أهل العلم التَّأذين في أُذن المولود حين ولادته؛ ليكون أوَّل ما يطرُق سمعه هو ذكر الله عز وجل وشهادة التَّوحيد.

رابعًا: أن يسعى المربِّي عن طريق التَّدرُّج إلى تحقيق هدفين مرتبطين ببعضهما[18]، وهما:

(17) متفق عليه: البخاري (6311)، مسلم (2710).

(18) محمود غانم: «**طرق التَّربية والتَّعليم وتطورها عبر العصور الإسلاميَّة وحتَّى العصر الحديث**» (ص41 ـ 42).

1 ـ غرس العادات الفاضلة، ومنها التَّعويد على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

2 ـ إزالة وتغيير العادات السَّيِّئة الَّتي استحكمت لدى الطِّفل أو قاربت ذلك.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وممَّا يحتاج إليه الطِّفل غاية الاحتياج: الاعتناء بأمر خُلُقه؛ فإنَّه ينشأ على ما عوَّده المربِّي في صغره؛ ولهذا تجد أكثر النَّاس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قِبَل التَّربية الَّتي نشأ عليها، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، وكم ممَّن أشقى ولده وفلذة كبده في الدُّنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته له على شهواته، فما أفسد الأولاد مثل تغفُّل الآباء وإهمالهم، واستسهالهم شرر النَّار بين الثِّياب، وكلُّ هذا عواقبُ تفريط الآباء في حقوق الله، وإعراضُهم عمَّا أوجب الله عليهم من العلم النَّافع والعمل الصَّالح حرمهم الانتفاع بأولادهم، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم»[19].

وبعد هذا ننتقل إلى:

○ **الأسلوب الثَّالث: التَّلقين.**

لبيان دور أسلوب التَّلقين في تربية الأطفال على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّنا نعرض فيما يأتي لتلك التَّطبيقات التَّربويَّة، والخطوات العمليَّة الَّتي يُستثمر فيها التَّلقين للوصول إلى هذا المقصد.

أوَّلاً: ينبغي أن يحرص المربُّون على تلقين الطِّفل منذ نهاية مرحلة الرّضاعة وابتداء مرحلة الحضانة بعض ألفاظ الذِّكر وذلك لاستغلال الفترة الَّتي يبدأ فيها الطِّفل في الكلام والحوار، وممَّا يمكن تلقينه إيَّاه في هذه المرحلة: شهادة الإسلام «لا إله إلاَّ الله»، ومن قبلها لفظ الجلالة، وبعض ألفاظ الذِّكر القصيرة الجُمَل، مثل: «بسم الله، والحمد لله»، مع مراعاة أن يتمَّ ذلك مع استغلال الأحداث اليوميَّة في ذلك، فمثلاً: يُلقَّن عند ابتداء الأكل والشُّرب قول: «بسم الله»، وعند الانتهاء منهما: «الحمد لله»، وهكذا أنواع الأذكار الأخرى.

ثانيًا: أن يعتني المربُّون بتلقين أعظم الذِّكر وأشرفه ألا وهو القرآن الكريم؛ ولهذا ينبغي أن يُحرص على أن يتلقَّن الطِّفل آي الذِّكر الحكيم تدريجيًّا، ابتداءً بقصار السُّور والآيات، كآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، وغيرها من السُّور والآيات.

ولتحقيق هدف حفظ القرآن أو بعضه؛ فإنَّه ينبغي أن تتضافر جهود الوالدين، والقائمين بالتَّربية في البيت مع جهود المدرسة والمسجد، ولأنَّ قراءة القرآن الكريم سُنَّة متَّبعة؛ فإنَّه يجب الحرص على أن يتلقَّى أطفالنا تلكم القراءة من أفواه الشُّيوخ المجوِّدين، والحُفَّاظ المُتْقِنين؛ لنصل بالطِّفل بذلك إلى التِّلاوة الصَّحيحة، والَّتي ينبني عليها فيما بعد أمر التَّدبُّر والعمل، وقد سدَّت في هذا المجال حلقات التَّحفيظ ـ للبنين والبنات ـ في المساجد والدُّور وغيرها ثغرةً كبيرةً ـ بحمد الله ـ ممَّا يستحِثُّ المربِّين على إدخال أبنائهم في هذه الأنشطة المباركة، واستخدام أنواع المُحفِّزات في ذلك، «ولقد كان هذا هو دأب الصَّحابة ـ رضوان الله

(19) ابن قيم الجوزيَّة: «**تحفة المودود**» (ص209 ـ 211) ـ بتصرُّف.



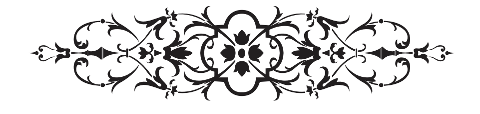
عليهم ـ في أنفسهم وفي أولادهم، وهم أكرم الأجيال وخيرها وأفضلها، يحفظون القرآن ويحفّظونه أولادهم تلقّيًا عن رسول الله ﷺ في صلواته وغيرها حتَّى كان حفظ القرآن وتلاوته وتلقِّيه جزءًا من حياتهم اليوميَّة»[20].

ثالثًا: أن يهتمَّ المربُّون ـ وخاصَّة الوالدين ـ بنوعي التَّلقين: المباشر وغير المباشر، ويُقصد بالمباشر ما يتمُّ من تلقينٍ مقصودٍ وواضح للطِّفل، كأن يُقال له: يا بُنيَّ!.. قُل: بسم الله.

وأمَّا التَّلقين غير المباشر؛ فيكون باستثارة الطِّفل؛ لأن يقول الذِّكر أو الدُّعاء المناسب، وهو ما قد يُسمَّى بـ«الإيحاء»، وهو: «إيصال القناعة بفكرة ما إلى ذهن السَّامع عن غير طريق التَّلقين المباشر»[21]، كأن يقول الوالدان وقد وُضِع الطَّعام للأكل ـ وبصوتٍ مسموع ـ: «بسم الله»، فإنَّ هذا يدعو الطِّفل للاقتداء بهما في ذلك[22].

ويدلُّ للنَّوع الأوَّل ما قد ثبت في «الصَّحيحين» من حديث عمر بن أبي سَلَمَة رضي الله عنه قال: كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصَّحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يَا غُلَامُ! سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»، فما زالت تلك طِعمتي بعدُ[23].

رابعًا: أن يحرص المربُّون للطِّفل على أن يمزجوا مع أسلوب التَّلقين ما يقوِّيه من الأساليب التَّربويَّة المتنوِّعة، بما يتمُّ به تحقيق الأهداف التَّربويَّة المنشودة، ومن ذلك: تطبيق مبدأ القدوة الحسنة، والتَّدرُّج، واستخدام الحوار، والحوافز بأنواعها، والقصص التَّربويَّة المؤثِّرة، وغيرها من الأساليب والوسائل التَّربويَّة المفيدة الَّتي تُشكِّل مع التَّلقين أساسًا قويًا، ومنهجًا متكاملاً في التَّعامل الأمثل والتَّربية الإسلاميَّة المثمرة للطِّفل المسلم.



(20) عبد الرَّب نواب الدِّين آل نواب: «**مسؤوليَّة الآباء تجاه الأولاد**» (ص175).

(21) عبد الرحمن النحلاوي: «**أصول التَّربية الإسلاميَّة**» (ص219).

(22) عدنان باحارث: «**مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة**» (ص281).

(23) البخاري (5376)، ومسلم (2022).

النبراس في تصحيح كلام النَّاس

عمر الحاج مسعود

هذا بيان لمجموعة أخرى من العبارات المنتشرة بين النَّاس، مع التَّوجيه والتَّصحيح والتَّزييف[1]، والله الموفّق والمعين.

العمل عبادة

تطلق هذه العبارة «العمل عبادة» على الارتزاق والعمل الدُّنيوي، وهذا حقٌّ؛ لأنَّ الشَّرع الحنيف حثَّ على طلب الرِّزق ورغَّب فيه؛ حتَّى يعيش المؤمن عزيزًا شريفًا لا يمدُّ يدَهُ للنَّاس ولا يسألهم أموالهم، ولا يستشرف إليها، قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة]، وفضلُ الله هنا التِّجارة وطلب الرِّزق، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللَّهُ بهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعوه»[2]، وقَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام؛ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[3].

ولكن لا يكون هذا السَّعيُ والعمل عبادةً إلاَّ بشروط:

1 ـ أن تكون نيَّةُ العامل النَّفقةَ على نفسه وأهله ووالديه وأولاده وفعل الخير والإنفاق في سبيل الله، فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: مرَّ على النَّبيِّ ﷺ رجلٌ؛ فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِه ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ في

(1) أصلُه تمييز الرَّائج من الزَّائف، ثمَّ استُعْمل في الرَّدِّ والإبطال. [«تاج العروس» (413/23)].

(2) رواه البخاري (1471).

(3) رواه البخاري (2072).



سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»[4].

2 ـ أن لا تكون عنده مقاصد سيِّئة، مثل المفاخرة والمباهاة وطلب العلوّ في الأرض والفساد، واستعمال المال في معصية الله ربِّ العالمين والتَّكبُّر على النَّاس، وإلاَّ كان سعيه وخروجه «**فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ**» كما قال ﷺ في الحديث السَّابق.

وهذا حال عدد غير قليل من النَّاس، غرَّهم مالهم، وحملهم على الظُّلم والطُّغيان والاعتداء، وجرَّهم إلى العقوق والتَّكبُّر والخيلاء، فكيف يكون عملهم وسعيهم عبادة؟! قال الله تعالى في آخر قصَّة قارون: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)**﴾ [سورة القصص].

مرَّ عليّ بن الحسين رحمه الله ـ وهو راكب ـ على مساكين يأكلون كسرًا لهم، فسلَّم عليهم؛ فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا**﴾، ثمَّ نزل وأكل معهم، ثمَّ قال: قد أجبتكم فأجيبوني؛ فحملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم وصرفهم[5].

3 ـ أن يكون الكسب من وجه طيِّبٍ حلالٍ، قال تعالى: ﴿**قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)**﴾ [سورة المائدة]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا**»[6]، وقال ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ...**» الحديث[7].

فيجب على السَّاعي في طلب الرِّزق أن ينضبط بأحكام الإسلام، ويجتنب السُّحت والحرام، مثل الرِّبا والرِّشوة والغشّ والكذب والخمر والقمار والغَرَر... كما ينبغي أن يتقن عملَه ويوفي بعقوده، وإلاَّ كان سعيه عبثًا، وكسبه خبيثًا.

4 ـ أن لا يصدَّه عن طاعة الله وعن الصَّلاة، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩)**﴾ [سورة الجمعة]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩)**﴾ [سورة المنافقون]، وذِكْرُ الله هنا الصَّلاة والحجُّ ونحوهما، قال الحسن البصري: «جميع الفرائض»، وقال الضَّحَّاك: «الصَّلوات الخمس»[8].

ومدح الله عزوجل عُمَّارَ بيوته بقوله: ﴿**يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**﴾ [سورة النور].

عن سالم بن عبد الله رحمه الله أنَّه نظر إلى قوم من السُّوق قاموا وتركوا بياعاتهم إلى الصَّلاة فقال: هؤلاء الَّذين ذكر الله في كتابه: ﴿**لَا**

(4) رواه الطبراني في «الكبير» (129/19)، قال الألباني: «صحيح لغيره» [«صحيح الترغيب» (1692)].

(5) «مكارم الأخلاق» للطَّبراني (173)، «تفسير القرطبي» (320/13).

(6) رواه مسلم (1015).

(7) أخرجه البخاري (1410)، ومسلم (1014).

(8) «تفسير الطبري» (410/23)، «تفسير القرطبي» (129/18).

﴿تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾»[9].

وعليه؛ فلا يجوز للعبد أن يترك الصَّلاة ويؤخِّرها عن وقتها بحجَّة أنَّ العمل عبادةٌ، اللَّهمَّ إلاَّ حين يجوز الجمع بين الصَّلاتين تقديمًا أو تأخيرًا، وأيُّ خيرٍ أو بركة في عملٍ تُضَيَّعُ من أجله الصَّلاة؟! بل كيف يكون عبادةً، وقد ألهى عن أعظم ركن بعد الشَّهادتين؟!

وتأمَّل في مدح النَّبيِّ ﷺ راعي غنم بقوله: «**يَعْجَبُ رَبُّكُمْ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةٍ بجَبَلٍ يُؤَذِّنُ بالصَّلاةِ وَيُصَلِّي فَيَقُولُ اللَّهُ عز وجل: انْظُرُوا إلى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلاَةَ يَخَافُ مِنِّي؛ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الجَنَّة**»[10]، فلم يلهه غنمُه عن ذكر اللَّه وعن الصَّلاة، فجمع بين الخَيْرَيْن وفاز بالأجرين.

5 ـ احتساب أجر العمل والسَّعي والنَّفقة على اللَّه تعالى.

فالسَّعي لطلب الرِّزق من المعروف، والنَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يقول: «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ**»[11]، والصَّدقة تفتقر إلى نيَّة واحتساب وحسن قصد، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء].

(9) «تفسير الطبري» (192/19).

(10) رواه أبو داود (1203)، النَّسائي (666)، وهو صحيح، «الصحيحة» للألباني (41).

(11) رواه البخاري (6021)، ومسلم (1005).

فينبغي للعامل أن يحتسب أجر سعيه ونفقته على ربِّه تعالى، قال ﷺ: «**إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ**»[12]، وقال لسعد ابن أبي وقَّاص رضي الله عنه: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ**»[13].

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: «فيه دليل على أنَّ الثَّواب في الإنفاق مشروطٌ بصحَّة النِّيَّة وابتغاء وجه اللَّه، وهذا دقيقٌ عَسِرٌ إذا عارضه مقتضى الطَّبع والشَّهوة»[14].

وقال الشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله: «فيه إشارة أنَّه ينبغي للإنسان أن يستحضر نيَّة التَّقرُّب إلى اللَّه في كلِّ ما ينفق حتَّى يكون له في ذلك أجر»[15].

هذا في النَّفقة، والسَّعيُ في طلب الرِّزق وسيلةٌ إلى ذلك، وللوسائل أحكام المقاصد.

فإذا أراد السَّاعي في طلب الرِّزق الأجرَ والثواب؛ فعليه أن ينوي بذلك إرضاءَ ربِّه والإنفاق في سبيله وإعفاف نفسه والتَّوسعة على أهله وأولاده.

قال ابن الجوزي رحمه الله عن المال: «وأمَّا مَن قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال، نظرنا في مقصوده، فإنْ قصد نفس المفاخرة والمباهاة، فبئسَ المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وادَّخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التَّوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح؛ أثيب على قصده، وكان

(12) رواه البخاري (55)، ومسلم (1002).

(13) رواه البخاري (56)، ومسلم (1628).

(14) «إحكام الأحكام» (10/4).

(15) «شرح رياض الصالحين» (29/1).

جمعه بهذه النِّيَّة أفضل من كثير من الطَّاعات»[16].

فإذا تقيَّد طالبُ الرِّزق بهذه الشُّروط؛ كان عمله عبادةً يُؤجر عليها، أمَّا إذا أنساه ذكرَ مولاه، وصدَّه عن العمل لِلُقْيَاهُ، وألْهَاهُ عن الصَّلاة؛ انقلب إلى معصية، وربَّما صار صاحبُه عبدًا له، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرض**»[17].

لا حيــاء في الدِّيــن

المقصود من هذه العبارة رفعُ الحرج ونفي الحياء في السُّؤال عن الأحكام الشَّرعيَّة، وبخاصَّة إذا كان الأمر متعلِّقًا بالطَّهارة والمعاشرة الزَّوجيَّة ونحو ذلك.

ومعنى العبارة صحيحٌ؛ إذ ينبغي أن لا يكون الحياء مانعًا من التَّفقُّه في الدِّين وسؤال أهل الذِّكر العالِمين، قالت عائشة رضي الله عنها: «نِعْمَ النِّسَاءُ؛ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّين»[18].

وقال مجاهد رحمه الله: «لا يتعلَّم العلمَ مستحيٍ ولا مستكبرٌ»[19].

فالحياء الَّذي يمنع صاحبه من طلب العلم والسُّؤال عن أحكام الشَّريعة وقول الحقِّ؛ ليس حياءً شرعيًّا، إنَّما هو ضعف ومهانة وخور.

لكنَّ العبارة فيها إيهام ولَبْس بهذا الإطلاق؛ إذ الحياء من الدِّين، بل هو خلق الإسلام، قال ﷺ: «**وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإيمَانِ**»[20]، وقال: «**إنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الإسْلَامِ الحَيَاءُ**»[21].

والعبارة الصَّحيحة المناسبة في هذا الباب: «أن يقول: إنَّ الله لا يستحيي من الحقِّ»[22].

هذا هو هديه ﷺ وهدي أصحابه رضي الله عنهم، قال ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي مِنْ الحَقِّ** ـ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ـ **لا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ**»[23].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاةٍ مَا دَامَ يَنْتَظِرُ الَّتِي بَعْدَهَا، ولاَ تَزَالُ المَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَسْجِدِهِ؛ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ حَضْرَمَوْتَ: وَمَا ذَلِكَ الحَدَثُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: «إنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ، إنْ فَسَا أَوْ ضَرَطَ»[24].

وقالت أمُّ سليم رضي الله عنها: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! إنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ، هَلْ عَلَى المَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا هِيَ احْتَلَمَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**نَعَمْ، إِذَا رَأَتِ المَاءَ**»»[25]، قال ابن حجر رحمه الله: «قدَّمَتْ أمُّ

(16) «تلبيس إبليس» (243).

(17) رواه البخاري (2886).

(18) رواه مسلم (332)، وعلَّقه البخاري بصيغة الجزم: كتاب العلم، باب الحياء في العلم.

(19) علَّقه البخاري مجزومًا به: كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ووصله أبو نعيم في «الحلية» (3/287)، قال ابن حجر: «إسناده صحيح» [«الفتح» (1/229)].

(20) رواه البخاري (9)، ومسلم (35).

(21) رواه ابن ماجة (4181)، وهو حسن. [«الصحيحة» للألباني (940)].

(22) قاله الشيخ العثيمين في «اللقاء الشهري» (2/398).

(23) رواه أحمد (5/213)، ابن ماجة (1924)، واللَّفظ له، وهو صحيح، «صحيح الترغيب» (2427).

(24) رواه أحمد (2/290)، وإسناده صحيح.

(25) رواه البخاري (282)، ومسلم (313).

سليم هذا الكلام بسطًا لعُذْرِها في ذكر ما تستحيي النِّساء من ذكره بحضرة الرِّجال»[26]، فكانوا يستعملون عبارة: «إنَّ الله لا يستحيي من الحقِّ»، وخير الهدي هدي محمَّد ﷺ، وأفضل السَّبيل سبيلُ أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

الفَـاتحَـة:

إنَّ سورة الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن، كما قال الرَّسول ﷺ لأبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه: **«لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هيَ أَعْظَمُ السُّورِ في القُرْآنِ... قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»**[27]، وهي بمفردها رقية شافية بإذن الله تعالى، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّه رقى لَدِيغًا بسورة الفاتحة فبرأ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: **«وما يدريك أنَّها رقية...»** الحديث[28].

ولهذا ولغيره من الفضائل صار بعض النَّاس يتوسَّعون في استعمالها طلبًا للأجر والبركة والرِّزق، حتَّى وقعوا في الابتداع، وزيَّن لهم الشَّيطانُ الاختراع، من ذلك أنَّهم يسمُّون عقد الزَّواج «فَاتْحَة»، وهذا لاعتقادهم لزوم قراءتها في عقد الزَّواج أو لتفاؤُلهم بالخير والبركة والتَّوفيق في الزَّواج المستفتح بهذه السُّورة.

(26) «الفتح» (229/1).

(27) رواه البخاري (4474).

(28) رواه البخاري (2276)، ومسلم (2201)، والتِّرمذي (2063)، وعنده التَّصريح أنَّ الرَّاقي هو أبو سعيد رضي الله عنه.

ولا شكَّ أنَّ هذا من البدع؛ إذ لا دليل عليه من الكتاب أوالسُّنَّة.

وهناك من يعتقد أنَّ العقد الشَّرعيَّ لا يصحُّ إلاَّ بقراءتها، وقد حدَّثني بعض طلبة العلم أنَّه أبرم عقد زواج بالطَّريقة الشَّرعيَّة السُّنِّيَّة، لكن أحد الحاضرين طَلَبَ منه قراءة الفاتحة، وألحَّ عليه في ذلك، فلمَّا رفض الطَّالب وأَبَى، أحضر القوم شخصًا آخر فأعاد العقد بقراءتها، وإلى الله المشتكى.

على كلِّ حال؛ فهذه التَّسمية خاطئةٌ ما أنزل الله بها من سلطان، والله عَزَّوَجَلَّ سمَّاه عُقْدَة النِّكاح: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: 235]، وسمَّاه ميثاقًا غليظًا: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١﴾ [سورة النساء]، والمراد به العقد[29]، وهذا هو المتعارف عليه عند أهل العلم.

سُئل الشَّيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عن قراءة الفاتحة مع عقد الزَّواج؟ فأجاب:

«ليس هذا بالمشروع، بل هو بدعة... فالفاتحة وغيرها من السُّور لا تُقرأ في أيِّ حال، وفي أيِّ مكان، وفي أيِّ زمان إلاَّ إذا كان ذلك مشروعًا بكتاب الله أو بسنَّة رسوله ﷺ وإلاَّ فهي بدعة يُنكر على فاعلها»[30].

ثمَّ إنَّ هذه العبارة أخفت التَّسمية الصَّحيحة لهذا الميثاق، بل أبطلتها، إلى درجة أنَّك لا تكاد تسمع من يسمِّيه عقدًا إلاَّ في السَّنوات الأخيرة الَّتي انتشرت فيها العلوم الشَّرعيَّة وظهرت فيها

(29) «تفسير ابن كثير» (245/2).

(30) «برنامج نور على الدَّرب» (84/2).



أنوار السُّنَّة المحمَّديَّة، وما عاد على الأصل بالإبطال فهو باطل.

فتَّحْ لي

إذا أراد بعض النَّاس طلب الدُّعاء من أخيه قال له: «فَتَّحْ لِي»، ولهذه اللَّفظة علاقة بالعبارة السَّابقة، ويُقال في بعض المناطق عند طلب الدُّعاء: «اقرأ لي فاتحة»، ويقولون كذلك: «الفاتحة على أرواح الموتى»، وكلُّ هذا من البدع[31]، ولعلَّ ذلك راجعٌ لاعتقاد أنَّ الفاتحة تُقرأ مع الدُّعاء، في الابتداء أو في الختام، ولا أصل لهذا في الشَّرع، فهذه كتب الحديث والأدعية والأذكار لا يوجد فيها شيءٌ من ذلك، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»[32].

وليس للعبارة معنى من حيث اللُّغة؛ لأنَّ «فتَّح» مبالغة في «فتح».

ماتْ مُوتْ رَبِّي

يُقصد بهذه العبارة: أنَّ هذا الميِّت مات موتةً عاديَّةً لم تكن بسبب ظلم أو اعتداء أو حادث سقوط أو اصطدام أو نحو ذلك.

فكأنَّهم يُقسِّمون الموت إلى نوعين: فالموت الَّذي لم يتسبَّب فيه المخلوق موتٌ من الله، وما كان بسببه فهو منه، بدليل أنَّهم يقولون أحيانًا: «يَاكْ مَاتْ مُوتْ رَبِّي، مَا قَتْلُوهْشْ».

وهذا في الحقيقة اعتقادُ المعتزلة القدريَّة الَّذين يرون أنَّ المقتولَ قُطِعَ عنه أجلُه، فلَوْ لَمْ يُقتل لعاشَ أكثر من ذلك حتَّى يبلغ أجله.

وعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة: ما دلَّت عليه نصوص الكتاب والسُّنَّة من أنَّ الإنسان يموت بأجلِه، مهما تعدَّدت الأسباب وتنوَّعت الأحوال، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا**﴾ [آل عمران: 145]، ﴿**وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا**﴾ [المنافقون: 11]، وقال ﷺ: «**لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ**»[33]، وقال ﷺ: «**ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**»[34]، وقال ﷺ: «**نَفَثَ رُوحُ القُدُسِ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا**»[35]، وأجل الإنسان: هو الوقت الَّذي يعلم الله أنَّه يموت فيه.

قيل للحسن رحمه الله: رجل قتل رجلاً أفبأجلِه قَتَلَهُ؟ قال: «قَتَلَهُ بأجله، وعصى ربَّه»[36].

وقال العلاَّمة ابن أبي العزِّ الحنفيّ رحمه الله: «المقتول ميِّتٌ بأجله، فَعَلِمَ الله تعالى وقدَّر أنَّ هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب الهدم، وهذا بالحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب، والله سبحانه

(31) انظر: «أحكام الجنائز» للألباني (ص325)، «تصحيح الدُّعاء» لبكر أبو زيد (ص275، 440).

(32) صحيح، رواه أحمد (167/4)، وأبو داود (1479)، انظر: «صحيح الجامع» للألباني (3407).

(33) رواه مسلم (2663).

(34) رواه البخاري (3208)، ومسلم (2643)، واللَّفظ له.

(35) رواه الطَّبراني في «الكبير» (7994)، وأبو نعيم في «الحلية» (27/10)، وهو صحيح، «صحيح الجامع» للألباني (2085).

(36) «التمهيد» لابن عبد البر (240/6).

خَلَقَ الموتَ والحياةَ وخلقَ سبب الموت والحياة»[37].

ومن المحتمل أنَّهم يقصدون أنَّه مات دون سبب من الإنسان، لكن مع ذلك فالعبارة قَلِقَةٌ مُوهِمَة؛ لأنَّ فيها ما ذُكر، وبخاصَّة إذا علمنا انتشار عقيدة القدريَّة بين النَّاس.

صلِّ على النَّبيِّ أو على محمَّد:

تُقال هذه العبارة في حالة الغضب والخصام والجدال، ولا يُقصد بها الذِّكر والتَّقرُّب إلى الله الكبيرِ المتعال، والصَّلاةُ والسَّلام على رسول الله ﷺ عبادةٌ وقربة، جعلها الله تعالى حقًّا من حقوق النَّبيِّ المصطفى ﷺ على كلِّ مسلم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾**﴾ [الأحزاب]، وقال ﷺ: «**البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»[38].

وهذه العبادة لها أحكام وصيغٌ وفضائلُ وفوائدُ وثمراتٌ بيَّنها أهل العلم، منهم الإمام ابن القيِّم رحمه الله في كتابه الفذِّ: «جلاء الأفهام في الصَّلاة والسَّلام على خير الأنام»، ومع ذلك فقد أدخلت عليها ـ كما أدخلت على غيرها من العبادات ـ بدعٌ ومخالفات، من ذلك أنَّ بعض النَّاس يقول لخصمه عند الغضب والجدال: «صلِّ على النَّبي أو على محمَّد» كأنَّه يريد إسكاته ومغالبته.

وهذا في الحقيقة سوء أدب مع الرَّسول ﷺ، وإن لم يقصد؛ لأنَّ إسكات الخصم لا يكون بمثل هذا، ولكن هكذا يفعل الجهل والغضب بصاحبه، وقد يستجري الشَّيطانُ الغضبانَ حتَّى يقول: «لا أصلِّي»، «مَانْصَلِّيشْ»، «صَلِّ وَحْدَكْ»، فيصدر منه هذا التَّصرُّف المشين، ويقع في الضَّلال المبين.

قال الإمام المصلح ابن باديس رحمه الله: «وقد اعتاد بعضهم أن يقول لصاحبه عند الغضب: صلِّ على النَّبي، وهذا وَضْعٌ لها في غير محلِّها، وتعريضٌ للاسم الشَّريف إلى ما لا يَليقُ ممَّا قد يكون عند جنون الغضب من تقصير أو سوء أدب؛ فليحذر من هذا ومثله»[39].

والمشروع أن يقال للغضبان: تعوَّذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾**﴾ [فصلت]، وعن سليمان بن صُرَدٍ رضي الله عنه قال: استبَّ رجلان عند النَّبيِّ ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسبُّ صاحبه مُغْضَبًا قد احمرَّ وجهُه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»، فقالوا للرَّجل: ألا تسمع ما يقول النَّبيُّ ﷺ، قال: «إنِّي لست بمجنون»[40]، وفي رواية: «فقالوا له: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ**»[41].

والله أعلم، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ونبيِّه محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(37) «شرح الطحاوية» (1/ 127).

(38) رواه أحمد (210/1)، والتِّرمذي (3546)، وغيرهما، وإسناده صحيح: «الإرواء» (5).

(39) «مجالس التَّذكير من حديث البشير النَّذير» (249).

(40) رواه البخاري (6115) ومسلم (2610).

(41) رواه البخاري (3282).

بركة العمل بالسُّنَّة

❁ أخرج ابن عبد البرِّ بسند جيِّد عن أبي داود صاحب «السُّنن» أنَّه كان في سفينة فسمع عاطسًا على الشَّطِّ حَمِدَ؛ فاكترى قاربًا بدرهم حتَّى جاء إلى العاطس فشمته ثمَّ رجع، فسُئل عن ذلك فقال: لعلَّه يكون مجاب الدَّعوة، فلمَّا رقدوا سمعوا قائلاً يقول: يا أهل السَّفينة! إنَّ أبا داود اشترى الجنَّة من الله بدرهم.

«فتح الباري» (10/610)

السَّير على السُّنَّة

❁ قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من سار على طريق الرَّسول ﷺ ومنهاجه وإن اقتصد، فإنَّه يسبق من سار على غير طريقه وإن اجتهد.

من لي بمثل سيرك المدلَّل

تمشي رويدًا وتجيء في الأوَّل»

«لطائف المعارف» (283)



شناعة سبِّ الصحابة رضي الله عنهم

❁ قال بشر بن الحارث رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لو أنَّ الرُّوم سبَت من المسلمين كذا وكذا ألفًا، ثمَّ فَدَاهُمْ رجلٌ كان في قلبه سوءٌ لأصحاب النَّبيِّ ﷺ لم ينفعه ذلك».

«المجالسة وجواهر العلم» (1/412)

الإسناد من الدِّين

❁ أنَّ عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضلَّ في بعض أسفاره في طريق، وكان قد بلغه أنَّ مَنْ اضطرَّ إلى مفازة؛ فنادى: عباد الله! أعينوني؛ أُعِينَ، قال: فجعلت أطلب الجزء أنظر إسناده.

قال الهروي: فلم يستجز لأن يدعوَ بدعاء لا يرضى إسناده.

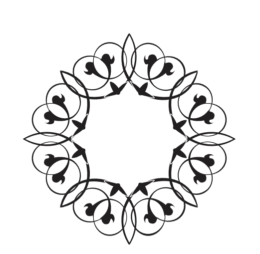
«ذم الكلام» للهروي (602)

الإسلام لا ينافي التَّقدُّم

۞ قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾:

«ومن هدي القرآن للَّتي هي أقوم: هديه إلى أنَّ التَّقدُّم لا يُنافي التَّمسُّك بالدِّين، فما خيَّله أعداء الدِّين لضعاف العقول ممَّن ينتمي إلى الإسلام باطلٌ لا أساس له، والقرآن الكريم يدعو إلى التَّقدُّم في جميع الميادين الَّتي لها أهميَّة في دنيا أو دين، ولكن ذلك التَّقدُّم في حدود الدِّين والتَّحلي بآدابه الكريمة وتعاليمه السَّماويَّة».

«أضواء البيان» (127/3)



درر من كلام شيخ الإسلام رحمه الله

۞ خيرُ الأعمال ما كان للّه أطوع، ولصاحبه أنفع.

[«الجواب الصحيح» (334/6)]

۞ القلوب الصَّادقة والأدعية الصَّالحة هي العَسْكَرُ الَّذي لا يُغلب.

[«مجموع الفتاوى» (644/28)]

۞ النِّيَّة المجرَّدة عن العمل يُثاب عليها، والعمل المجرَّد عن النِّيَّة لا يُثاب عليه.

[«المجموع» (234/22)].

۞ ليس في الدُّنيا نعيمٌ يشبه نعيمَ الآخرة إلاَّ نعيم الإيمان.

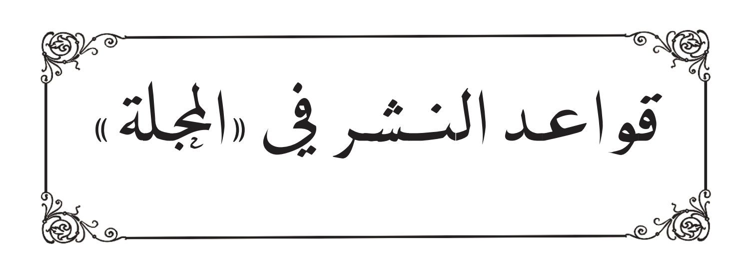
[«المجموع» (31/28)]

۞ ما لا يكون باللّه لا يكون، وما لا يكون للّه لا ينفعُ ولا يدوم.

[«مختصر الفتاوى المصرية» (174/1)]

۞ من تدبَّر أصول الشَّرع علم أنَّه يتلطَّف بالنَّاس في التَّوبة بكلِّ طريق.

[«تفسير آيات أُشكلت» (595/2)]



1 ـ أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.

2 ـ أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.

3 ـ أن يُحَرَّر المقال بأسلوبٍ يحقق الغرض، ولغةٍ بعيدة عن التكلف والتعقيد.

4 ـ الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.

5 ـ أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.

6 ـ ألا يزيد المقالُ على خمس صفحات.

7 ـ أن يَذكر صاحبُ المقال اسمَه الكامل وعنوانَه ورقمَ هاتفه، ودرجتَه العلمية إن وُجِدَت.

8 ـ المقالاتُ أو البحوثُ التي لا تُنشر لا تُرَدُّ لأصحابها.